رسائل ما قبل الانتحار

د. إسماعيل عرفة

عصير الكتب

رسائل

ما قبل

الانتحار

رسائل

ما قبل

الانتحار

د. إسماعيل عرفة

إهداء

إلى الصامدين

على الرغم من قسوة العالم..

***

إلى من يحافظ على عقله

في عالم كل شيء فيه يدعو للجنون..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

المحتويات

مدخل إلى الكتاب

على أنغام موسيقى هادئة في الخلفية، وفي شقة متواضعة حُوصر فيها قسرًا، وفي لحظة بائسة في شهر أبريل عام 1930م، قرر الشاعر والمناضل الروسي الراحل فلاديمير مايكوفيسكي كتابة رسالة شخصية قصيرة إلى أحبائه قبل أن يقرر إطلاق زناد مسدسه صوب قلبه مباشرة.

كتب مايكوفيسكي في رسالته: "إلى أمي، وأخواتي، ورفاقي، هذه ليست طريقة جيدة، ولا أرشحها لأي إنسان، ولكن ليس هناك طريق آخر". ثم أطلق النار وأردى نفسه قتيلًا. سقط مايكوفيسكي مضرجًا في دمائه، ووجد الناس جثته هامدة ملقاة على الأرض ساكنة خامدة كأنها تعلن حدادها على هذا الجسد الذي كان مفعمًا بالحيوية والنشاط

وطالما جاب الأرض شرقًا وغربًا من أجل نشر الرسالة والقضية التي يحملها مايكوفيسكي.

بدأت مراسم الجنازة وكان المشهد مهيبًا بحق، فقد حضر الجنازة حشد ضخم يتجاوز 150,000 مواطن روسي، ويقال إنه ثالث أكبر عدد لحاضري جنازة في تاريخ الاتحاد السوفيتي بعد ستالين ولينين فقط. تركنا مايكوفيسكي وترك لنا رسالة تثير العجب، فهو يعلم يقينًا أن الانتحار ليس وسيلة ناجعة لحل مشكلاته، كما أنه يحذر رفاقه من سلوك نفس الطريق، ألا تحمل لنا رسالة الانتحار هنا إذن موعظة بليغة ونصيحة نفيسة حريٌّ بنا أن نتقصاها ونلتمس فوائدها ونستخلص العبرة منها؟

تبدو قرارات الانتحار –بالنسبة إلينا- مركبة ومعقدة، لا يمكن حصرها في زاوية واحدة، وتختلف آراؤنا حولها من حيث تقييمنا لها بحسب الزاوية التي ننظر إليها منها، فمن زاوية ما تبدو قرارات الانتحار مأساوية، دموية، مثيرة للحزن والشفقة.. ومن زاوية أخرى تبدو القرارات شجاعة، أو متهورة، لا يكترث صاحبها بأغلى شيء موجود: الروح

الإنسانية، استطاع أن يتغلب على الخوف من الموت، ومن زاوية ثالثة فإن الانتحار يبدو مخيفًا، بائسًا، يبعث الانكسار والرعب في النفس تجاه المعاناة والتراجيديا الموجودة في العالم، وأحيانًا يبدو الانتحار سبيلًا ممكنًا، أو حلًّا واقعيًّا، لمشكلات تعثَّر فيها المنتحر، فنتعاطف معه وربما نؤيده – ولو باطنيًّا- في قراره.

أيًّا كانت نظرتنا إلى الانتحار وموقفنا من المنتحرين، فإن المتفَق عليه هو أن الانتحار تجربة مؤلمة وصعبة، عانى أصحابها من تجارب خاصة أثرت في وجدانهم وطغت عليهم حتى صار الموت في تصورهم أهون من الحياة مع هذه التجارب، فمنهم من انتحر بسبب الحب، ومنهم من استبد به البؤس، ومنهم من هزمه الإحباط، ومنهم من قهره المجتمع.

ولعل أحد عوامل "جاذبية" المنتحرين هو أننا نجد أنفسنا في لحظة ما نتشارك نفس المشاعر مع المنتحرين، ويتجلى ذلك عندما نقرأ رسائل المنتحرين، فمن ذا الذي ينكر فينا أن رسالة فان جوخ الأخيرة: "الحزن سيدوم للأبد" قد لمسته من داخله كلما قرأها؟ ومن منا كلما قرأ رسالة داليدا: "سامحوني.

الحياة لم تعد تُحتَمل“ ساورته خاطرة وجدانية فتأوَّه بتنهيدة مشحونة بالألم دفعته لترديد نفس الجملة ”فعلًا الحياة لم تعد تُحتمل“.

هذا التشابه في تجارب حياتنا وتجارب المنتحرين هو ما يدفعنا لكتابة هذا الكتاب، فالمشاعر الأخيرة التي سجلها المنتحرون تلمسنا فتجذبنا إليها تلقائيًّا ومن هنا فمشاعر الانجذاب هذه هي التي سنحولها في هذا الكتاب لسؤال عملي: كيف نستفيد من تجارب المنتحرين وكيف نتعلم من تجاربهم؟

لقد ترك بعض المنتحرين رسائل نصية، وأحيانًا أشعار أو لوحات فنية، أو حتى منشورات على وسائل التواصل، من أجل تقريب فكر المنتحر وتبرير فعله أمام من حوله من الأصدقاء والمعارف، أو حتى المجتمع بأسره. وتمثِّل هذه الرسائل ثروة بحثية لم تجد نصيبها من البحث في عالمنا العربي، على الرغم من تصاعد الظاهرة بشكل ملحوظ. بعض هذه الرسائل تضمنت نصائح صريحة، مثل تلك التي أوردناها في البداية: ”لا أرشح الانتحار لأي إنسان“، وبعض الرسائل تضمنت

صرخات غضب، وشهقات يأس، وبرقيات عتاب، تمثل جلها تربة خصبة لإنماء فكرنا وإثراء حياتنا.

فهؤلاء الذين وصلوا إلى حالة يائسة للغاية من فقدان الأمل وانعدام الحيلة وقلة الإيمان، بدا الانتحار بالنسبة إليهم المهرب الوحيد أو الملاذ الأخير الذي سيساعدهم في القضاء على آلامهم، لكنهم لا يستوعبون أنهم بقرارهم ذاك يزهقون نفسًا حرَّم الله قتلها، ليعبر المنتحر من بؤس الدنيا إلى شقاء الآخرة، دون حساب وافٍ للمكاسب والخسارات الناتجة عن ذلك القرار.

ولذلك أقرَّ الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي حقيقة ثقيلة لكنها واقعية، عندما قال: "**لا عذر للمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهمِّ ونفسه بالأسى، ومهما ألمَّت به كوارث الدهر وأزمت به أزمات العيش، فإن ما قدم عليه أشد مما فر منه، وما خسره أضعاف ما كسبه**"[1].

وهذه الظاهرة -ظاهرة الانتحار- ليست وليدة اليوم، بل إنها قديمة قدم البشرية تقريبًا، ولعل أحد النماذج في السيرة

---

(1) مصطفى لطفي المنفلوطي، النظرات، (بيروت: الدار النموذجية للطباعة والنشر، 2008م)، 2/153.

النبوية ذاتها هو ما حدث عندما رأى بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- رجلًا منهم يقاتل بضراوة في المعركة، فأثنوا عليه وأعجبوا به، وقالوا: "ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان"، أي ما كفى أحدٌ كفايته ولا قام مقامه. فلما بلغ ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "**أما إنه من أهل النار**". فتعجب الصحابة: كيف يكون هذا الرجل المقدام المجاهد بنفسه في سبيل الله يتلقى الضربات وتسيل منه الدماء نصرةً للدين، ثم يُلقى به في النار؟

حينها قرر أحد الصحابة أن يتتبع الرجل في المعركة، ليراقبه عن بعد، فوجد الصحابي أن الرجل جُرِح في أثناء المعركة جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، وقرر قتل نفسه، فوضع مقدمة سيفه على صدره ثم دفعه إلى داخل جسده فقتل نفسه بنفسه، فلما أخبروا ذلك للنبي قال لهم: «الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله». وفي رواية: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[1]. وقد رجَّح بعض الأئمة مثل النووي وابن الجوزي وغيرهما أن

(1) متفق عليه.

الرجل كان اسمه قزمان، وكان من المتخلفين يوم أُحد، وكان معدودًا من جملة المنافقين.

الانتحار إذن فعل إنساني متكرر، والشبيه بين فعل هذا الرجل والنماذج التي سنعرضها هنا أنها كلها تنم عن حالة نفسية واحدة: يعجز الإنسان عن تحمل واقعه، ولا يرى أمامه سوى البؤس، فيستعجل الموت متخيلًا أن رحيله عن الدنيا سيشكل نهاية لآلامه وأحزانه، وبما أن هذه الحالة متكررة، فحق لنا أن نسبر قدرًا ولو ضئيلًا من أغواره، ونستكشف عبر رسائل المنتحرين كيف يمكننا تفادي مصيرهم، والتعلم من أخطائهم، والاتعاظ من تجاربهم، فالفقيه من اتعظ بغيره، والله الموفق لكل خير.

وسنكتفي في هذا الكتاب الصغير بعرض ثماني رسائل منتحرين فحسب، ففضلنا تقليل الكمية مقابل إعطاء كل رسالة حقها من العرض والتحليل، فالرسائل قد تبدو في ظاهرها شاعرية، أدبية، درامية، مثيرة للتعاطف، لكنها تخفي وراءها مآسيَ تستحق أن نسلط الضوء عليها في سبيل رسم صورة كاملة عن المنتحر والتعلم من تجربته، ولذلك فلن نقتصر على

عرض قبسات من حياة المنتحر في أسطر معدودة، وإنما سنعرض تفصيليًّا حياة الإنسان الذي كتب رسالة انتحاره، تفصيلًا يعطي لنا صورة مجملة عن حياة الشخص بعيدًا عما سطَّره في آخر لحظات حياته، لكيلا نحصر أنفسنا في أسطر قليلة تركها المنتحر تترك لنا انطباعًا خاطئًا يثير تعاطفنا معه أحيانًا، وعوضًا عن ذلك سنستكشف مراحل حياته وتطور أفكاره ونفسيته **ليتضح لنا المقدمات التي أدت إلى الانتحار، ونفهم ما وراء الرسائل، ونعتبر من القرارات الحياتية التي اتخذها هذا الشخص ليحصر نفسه أخيرًا في خانة الانتحار.**

وقد اخترت الرسائل بعناية من وسط آلاف الرسائل، لتغطي أحداثًا حياتية مشابهة لما يعيشه الشباب والفتيات العرب في أيامنا هذه، فبعض الرسائل جاءت من أناس يعانون الفراغ الوجودي والاتباع المفرط للشهوات، وبعضهم عانى الإحباط وفقدان الأمل، وبعضهم عانى تجارب حب فاشلة، وآخرون، وهكذا حاولت أن أختار أقرب الرسائل الانتحارية القريبة من واقعنا العربي البائس، حتى يكون القارئ والقارئة الكريمان على اتصال بأصحاب الرسائل ولا ينظرون إليهم كغرباء، ولا يقرؤون الكتاب للتسلية وتمضية الوقت، ولكن للاتعاظ

والتعلم من قصص هؤلاء، ممتثلين لقول الله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176].

وننبه إلى أن هذا الكتاب لا يتناول ظاهرة اجتماعية بالتحليل العلمي الموضوعي الدقيق، أي إنك لن تجد في هذا الكتاب تغطية شاملة تتناول قضية الانتحار برمتها في العالم العربي وتفصِّل في مسبباتها وعوامل تغذيتها وسبل علاجها والوقاية منها والأدوار المنوطة بالفاعلين المختلفين إزاء هذه الظاهرة، وإنما يركز الكتاب على حالات فردية تمثل أنماطًا محدودة من حالات الانتحار، حكايات شخصية تفترق في الأسماء والتواريخ والحوادث لكنها جميعًا تتفق في أمر واحد: أنها يمكن الاعتبار بها والنظر إليها والتفكر فيها من أجل استخلاص دروس حياتية تفيدنا في مسيرنا إلى الآخرة، فربما يجد القارئ نفسه أو نفسها يعاني كما عانى أحد أشخاص هذا الكتاب التراجيدي، ومن ثم ستلوح أمامه فرصة لاستدراك ما يمكن استدراكه وتفادي الأخطاء والعقبات التي أودت بحياة الآخرين.

وأخيرًا، بعد هذا المدخل، سأشارك القارئ سؤالًا أنفذ منه إلى ما بعده: ما الذي أثار اهتمامي برسائل الانتحار خصوصًا وليس قضية الانتحار عمومًا؟

في أحد الأيام راسلني أحد الأصدقاء، وبعث إليَّ منشورًا على إحدى صفحات الفيسبوك يتحدث عن أشهر رسائل الانتحار في العالم، وفي غضون أيام قليلة حصل المنشور على أكثر من 25 ألف مشاركة، وما لاحظته أن بعض المشاركات تميزت برسم قلب أحمر (❤) على المنشور، بعضها الآخر وضع إعجاب (أحببته Love) على المنشور، **وكأن هؤلاء النفر يتفقون أن ثمة صورة شاعرية جذابة بشكل ما للرسائل الانتحارية.** كما أن مئات التعليقات دارت حول الاحتفاء بالرسائل الانتحارية والتفكير في الإقبال على مثلها، ورسم صورة فنية "عميقة" لهذه الرسائل.

ثم تنبهت إلى أن هذه الحالة التي تضفي طابعًا مثاليًّا أو رومانسيًّا على فكرة سوداوية وبائسة مثل الانتحار هي بالضبط الحالة التي تم تصويرها في مسلسل 13 Reasons Why الذي عرضته شبكة NetFlix، وخرج في أربعة مواسم

بدأت في 2016م وانتهت في 2020م، ففي هذا المسلسل انتحرت الفتاة Hannah وسجلت أسبابها الـ13 التي دفعتها للانتحار، وتتوالى أحداث المسلسل مصوِّرة الانتحار بأنه فعل درامي له صورة فنية جمالية، ومن عجائب المسلسل أنه صوَّر مشهد انتحار الفتاة بكل بشاعة، وهو المشهد الذي يدفعنا للتساؤل: هل من المنطقي أن يتم تصوير الانتحار بهذه الشاعرية والدراما؟! ألا يجعل هذا المسلسل فكرة الانتحار أقل سوداوية في نفوس الناس؟!

لقد أخرجت الجمعية الوطنية لعلماء النفس المدرسيين الأمريكية تحذيرًا بخصوص المسلسل، قائلة بأنها "تحذر جميع الشباب وصغار السن، خصوصًا من لديهم أفكار انتحارية، من مشاهدة هذه السلسلة.. فسردها القصصي القوي ربما يؤدي إلى ترك انطباع رومانسي على سلوكيات الممثلين".

وأعتقد أنه لا يوجد أحسن من العبارة التي قالتها فيرونيكا بطلة فيلم Heathers الصادر عام 1988م عندما وصفت هذه

الحالة قائلة: "**هذه البرامج الإعلامية الصغيرة تأكل الانتحار بالملعقة، إنهم يجعلونه يبدو كأنه أمر رائع لتفعله!**".

ويبدو أن بعض الشباب والفتيات قد التقطوا هذه الحالة وطوَّروها حتى صار هناك معتقد بين بعض الفئات من الشباب والفتيات أنه كلما كانت حياتك أبأس، ازددت أهمية وإثارة. فالأكثر معاناة هو الأكثر جاذبية، وإذا كنت تعاني اضطرابات نفسية وميولًا انتحارية فأنت تمتلك مهارة إبداعية وطاقة متفجرة من الفن، أو كما قال أحدهم: "درجات الهوس الاكتئابي هي الدافع الأكثر روعة ورعبًا للإبداع الإنساني".

وسأختم مقدمتي بنقل طويل للصحفية هند مسعد تؤكد فيه على نفس المعنى، تقول مسعد: "على الرغم من أن عبارة (سيستمر الحزن إلى الأبد) لصاحبها فان جوخ عن استمرارية الحزن للأبد صارت واحدة من أكثر الاقتباسات شهرة واستخدامًا على منصات التواصل الاجتماعي، وعلى الرغم من أنها عادة ما تقدَّم في سياق عاطفي ورومانسي بشكل صار مبتذلًا، فإن هذا الابتذال خطير جدًّا وقد يقتل أحيانًا".

فالمنشورات التي تُجمِّل المرض العقلي والحزن، أو ما هو أسوأ، والتي تجعل الانتحار يبدو وكأنه عمل فني مأساوي أو حزين لكنه جميل، أحيانًا ما تُشجع على تحويل الفكرة إلى حقيقة. وربما لهذا السبب، صار إضفاء الطابع الرومانسي على الأمراض العقلية يمثل خطرًا محدقًا يجب الانتباه إليه. وفيما ينشر كثيرون هذا النوع من الرسائل للفت الانتباه، فقد يراه آخرون على أنه الخيار الوحيد القابل للتطبيق بالنسبة إليهم، وهو أمر خطير للغاية، لأنهم قد ينتحرون فعلًا.

الجانب الخطير الآخر لتلك المنشورات، التي تُضفي طابع العمق والجمال الحزين على الأمراض النفسية، هو أنها تصرِف الانتباه عن الذين يعانون فعلًا في صمت، لأن ذويهم أو معارفهم ينظرون إليهم على أنهم "مُدَّعو عُمق"، بينما هم في الحقيقة يحاولون جاهدين التأقلم مع وضع نفسي وعقلي شديد الثقل وشديد المرارة.

وفقًا للناقدة الفنية البولندية أوزي شوالتر، فقد غيرت منصات التواصل نظرة الناس إلى الأمراض النفسية فأبرزتها على أنها "شاعرية" أو "عميقة" أو "تزيد من قيمة المرء"،

بما في ذلك حالة فان جوخ المأساوية فقد صارت عُمقًا. ومع ذلك، فإن ما قدمه العديد من رواد تلك المنصات حقًّا هو ابتذال للفكرة وللمرض، ومن ثم تقليل احتمالية حصول المحتاجين فعلًا على المساعدة.

وفي حين صار ادعاء بعض الأشخاص على منصات التواصل الاجتماعي بوجود مشكلات عقلية ونفسية وسيلة سهلة لجذب الانتباه والحصول على الحب والشفقة والدعم النفسي وأحيانًا المادي، عوضًا عن تطوير أي مهارات شخصية تقتضي عملًا مضنيًا وجهدًا كبيرًا، فإن أولئك الذين يعانون بالفعل بسبب الأمراض النفسية والعقلية قد صاروا أكثر انعزالًا وخجلًا من التحدث علانية عن معاناتهم لشدة ما صار الحديث عن الأمر مبتذلًا.

تقول الطبيبة النفسية ربيكا برينتس: "الحزن ليس جميلًا ولا يجعلك أكثر جاذبية. لن تُغيِّر الصور الفنية لحبوب الانتحار أو مسدس يطلق الزهور حقيقة أن المرض العقلي ليس شكلًا من أشكال الفن يمكنك "إتقانه". إنها تجربة يمكن أن تجعل كل يوم من حياتك مؤلمًا وتعيسًا. الأمراض العقلية ليست "جماليَّة ولا شاعريَّة"، إنها دموع وصدمات ونوبات

حزن وهلع، إنها علاج وأدوية وأفكار انتحارية وتدمير للذات، إنها معركة يومية قد تشعر باستحالة الفوز فيها. الألم لا يعني الجمال، الألم يساوي الألم".

ختامًا، فإن الشخص الذي يعاني يوميًّا للنهوض من السرير ليس عميقًا، والشخص الذي يقطع شريانه حزنًا ليس شاعريًّا، والشخص الذي يتلوى في الأرض من شدة الهلع والبكاء ليس فنانًا، إنهم أشخاص يتعرضون للتعذيب ويحتاجون إلى الحب والدعم. وإذا كنت لا تعرف واحدًا منهم بشكل شخصي، تأكد على الأقل من نشر الوعي النفسي بشكل سليم حتى لا يضيع الذين يعانون فعلًا في بحر المتصنعين والمدعين"[1].

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم، وألا يجعل لي فيه نصيبًا، فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

والحمد لله رب العالمين.

يونيو 2021م

ذو القعدة 1442هـ

---

(1) هند مسعد، شاعرية الأحزان: لماذا يجب ألا نتعاطف مع أحزان فان جوخ؟

1

"

"الحزن يدوم للأبد"

فان جوخ (1853-1890)

رسام وفنان تشكيلي هولندي

"

"
”عزيزي ثيو، إلى أين تمضي الحياة بي؟ ما الذي يصنعه العقل بنا؟ إنه يفقِد الأشياء بهجتها ويقودنا نحو الكآبة، إنني أتعفن مللًا لولا ريشتي وألواني هذه، أعيد بها خلق الأشياء من جديد، كل الأشياء تغدو باردة وباهتة بعدما يطؤها الزمن، ماذا أصنع؟ أريد أن أبتكر خطوطًا وألوانًا جديدة، غير تلك التي يتعثر بصرنا بها كل يوم... كل الألوان القديمة لها بريق حزين في قلبي، هل هي كذلك في الطبيعة أم أن عينيَّ مريضتان؟ ها أنا أعيد رسمها كما أقدح النار الكامنة فيها“.
"

فور سماعنا لاسم الفنان الهولندي فينسنت فان جوخ يتسرب إلينا شعور بالرقي والتذوق الفني، لوحة ليلة النجوم The Starry Night من أشهر لوحاته جنبًا إلى جنب مع "البيت الأصفر" و"مقهى الشرفة في الليل Café Terrace at night" وغيرها من اللوحات حتى وصل عدد لوحاته المرسومة إلى 900 لوحة و1100 رسمة واسكتش، موجودين حاليًّا في متاحف متفرقة بهولندا ونيويورك وفرنسا وغيرهم.

قتل جوخ نفسه وهو ابن 37 عامًا فقط برصاصة في منتصف صدره، على الرغم من أنه كان في أول حياته ميسور الحال، محاطًا بأسرة طيبة ورعاية جيدة، حتى إنه مع تقدم العمر بدأ أخوه ثيو في الإنفاق عليه شهريًّا والتكفل بمصاريف حياته وعلاجه حتى يتفرغ لشغفه ويرسم لوحاته كما يشاء

دون التفكير في الأعباء المالية وما يستلزم ذلك من عمل مرهق وتفكير وقلق حول المستقبل.

من نظرة بعيدة، يبدو انتحار جوخ مأساويًّا ومثيرًا للتعاطف، كتب في رسالة انتحاره: "**عزيزي ثيو، إلى أين تمضي الحياة بي؟ ما الذي يصنعه العقل بنا؟ إنه يفقِد الأشياء بهجتها ويقودنا نحو الكآبة، إنني أتعفن مللًا لولا ريشتي وألواني هذه، أعيد بها خلق الأشياء من جديد، كل الأشياء تغدو باردة وباهتة بعدما يطؤها الزمن، ماذا أصنع؟ أريد أن أبتكر خطوطًا وألوانًا جديدة، غير تلك التي يتعثر بصرنا بها كل يوم... كل الألوان القديمة لها بريق حزين في قلبي، هل هي كذلك في الطبيعة أم أن عينيَّ مريضتان؟ هأنذا أعيد رسمها كما أقدح النار الكامنة فيها**".

كلمات يذوب القلب منها كمدًا وتثير عاطفتي الشفقة والتعاطف في آنٍ واحد، وربما تدفعنا للنظر إلى جوخ كضحية لا كمذنب، كنتاج للظروف الاجتماعية القاسية، فلا نلقي اللوم إلا على الناس والمجتمع وعدم تفهم الناس لاحتياجاته، لا سيما مع ثقافة منتشرة تستعرض المرض النفسي كجمال

حزين. فوفقًا لهذا التوجه، فإن الذين يعانون أمراضًا عقلية هم أشخاص مثيرون وعميقون وحساسون تجاه الفن والجمال، بل إن مرضهم النفسي هو ما يجعل جمالهم مميزًا على وجه الخصوص، وسيقع في حبهم أي شخص بسبب تميزهم هذا.

سادت هذه النظرة منذ الخمسينيات فصاعدًا، كان جوخ يتم ترميزه كعبقري وبطل حارب كل الظروف من أجل تخليد فنه لكنه لم يستطع التغلب على الظروف الوحشية والمجتمع الشرس، لكن دعونا نتساءل: ما الخطورة في هذه النظرة؟ إن الخطورة تنبع من تصويره كعبقري مجنون ليتم اختزال .شخصيته كلها في اضطرابه النفسي وتلقي باللوم على المجتمع لا على الشخص، وبالطبع فإن كثيرًا من حالات الانتحار -ومنها حالة جوخ شخصيًّا- يتحمل فيها المجتمع وأسرته جزءًا من المسؤولية، لكنه لا يعفي مسؤوليته الشخصية في إقدامه على إزهاق روحه أبدًا.

على جانب آخر فإن الاضطراب النفسي ليس مقياسًا للفن، أي إن جوخ لم يكن رسامًا جيدًا بسبب اضطرابه النفسي، فالاضطراب النفسي لا يحدد هوية الإنسان، والاضطراب

النفسي ليس تذكرة للتميز، بل على النقيض، ففي نوبات الهلع وفترات الاكتئاب وخلال أيام المعاناة كان جوخ يتوقف عن الإبداع ويصبح خطرًا على نفسه وعلى من حوله، إلى درجة أن المشفى كان يخفي لوحاته منه شخصيًّا حتى لا يفسدها بيديه.

إن المعتقد الشائع الذي يربط الإبداع بالجنون ويقرن الموهبة الفائقة بالاضطراب النفسي ليس صحيحًا. ويثبت ذلك في الدراسة التي أجرتها Karolinska Institutet على الشعب السويدي على مدار أربعين عامًا، واستنتجت أن "المهن الإبداعية أقل في الإصابة من غيرها من المهن بالاضطرابات النفسية"[1]. فتمجيد الاضطراب النفسي والنظر إليه بنوع من الرومانسية يعدُّ خطرًا في تطبيع الاضطرابات وفتح الأبواب أمام الناس لاستهواء الاضطرابات.

لنلقي إذن نظرة أكثر عمقًا نطرح فيها سؤالًا: ما الذي دفع جوخ للانتحار؟ وكيف نتعلم من تجربته في ذلك؟

(1) Simon Kyaga et al, Mental illness, suicide and creativity: 40-Year prospective total population study, Journal of Psychiatric Research, Volume 47, Issue 1, 2013, pp 83-90.

وُلد جوخ عام 1853م لأسرة متدينة من الطبقة الوسطى العليا بهولندا، منزل مستقر وعائلة دافئة، ومنذ نعومة أظافره عانى فان جوخ اضطرابات عقلية ونفسية متعددة، بدأت منذ خروجه إلى الحياة، فقد وَلدت أمه طفلًا قبل مجيء الفنان بسنة واحدة فقط، وأسمته فينسنت، لكنه مات عند ولادته، فلما ولدت فناننا بعد عام أسمته نفس الاسم، وللمفارقة فقد سمى أخوه، ثيو، وليدَه فينسنت أيضًا. ربما تبدو هذه التفصيلة بسيطة، سيما مع انتشار حالات مماثلة في زمنه، لكن هذا التسمي باسم أخيه الميت رجَّح بعض المؤلفين تسببه في تعميق شعور الاكتئاب عنده والارتباط الدائم بالموت وإنهاء الحياة عوضًا عن الاستبشار والإقبال على الحياة. وعلاوة على ذلك، كان فينسنت الفنان يزور قبر أخيه الوليد الميت كل أسبوع تقريبًا، ليجد نفسه يتساءل: هل أنا مجرد بديل لأخي؟[1]

التزم جوخ بإحدى المدارس للبنين منذ عام 1864م وأتم الثانوية ليعود إلى والديه عام 1868م، خلال سنوات مدرسته،

(1) Stephen Levick, Clone Being: Exploring the Psychological and Social Dimensions,(USA: Rowan & Liitlefield, 2004) P. 134.

وبجانب شعوره بالاغتراب عن أهله، فإن ما زاد طفولة جوخ اضطرابًا هو تقلباته النفسية الشديدة: انعزاله عن الناس، انطواؤه على نفسه بشكل مَرَضي، الكوابيس التي كانت تراوده دومًا، نوبات الهوس المفاجئة، نومه غير المنتظم، وصفته أخته بأنه "غير متواصل مع مجتمعه ويمشي كأنه مصاب بالدوار".

تأثرت حياته العملية بهذه التقلبات، ففي البداية، تحديدًا عام 1873م عمل كبائع للوحات الفنية، ثم تشاجر مع صاحب العمل وطُرد من الوظيفة ليعود عاطلًا عام 1876م، فانتقل إلى التدريس، وبعد ذلك تحول إلى مساعد لكاهن، ثم مترجم للكتاب المقدس، وفي عام 1878م حاول خوض السلك الكَنسي، لكنه فشل في اختبارات اللاهوت والتبشير. انعزل عن أهله مؤقتًا عام 1880م، ثم قرر السكن مع شقيقه ثيو عام 1886م.

لم يكن جوخ مستقرًّا في أي منزل، فقد تنقل بين نحو 50 منزلًا في حياته القصيرة، فلم يذق طعم الاستقرار قط، وفوق ذلك، في عام 1888م، أصابته نوبة نفسية انتقل على

إثرها لمستشفى آرلز، ثم خرج منه، وبعدها بعام واحد أودِع المشفى مرة ثانية عقب إصابته بنوبة جديدة، ومن حينها ظل مترددًا على العلاج حتى انتحاره في آخر حياته.

منذ عام 1880م، كان نفوره من الحياة يتزايد شيئًا فشيئًا، لم يكن يحب الاختلاط بالناس ويراهم دائمًا بصورة سلبية، وفي نهاية المطاف، عندما بدأ حسه الفني ينمو ويزيد اهتمامه بالرسم، أهمل منظره تمامًا ولم يعد يعبأ بنظافته الشخصية أو بملابسه، فكان من الطبيعي أن ينفر الناس من حوله لفظاظته وسوء خلقه ومنظره، كلما رآه الناس في الشارع هرعوا سالكين طريقًا آخر.

التفسير الوحيد الذي نجده لسلوك جوخ المُنفِّر ذاك هو ما اتجه إليه بعض المعاصرين بتشخيصه بأنه مصاب باضطراب التوحد Autism، بينما اتجه آخرون لتشخيصه باضطراب ثنائي القطب Bipolar Disorder، وسواء كان مصابًا بهذا أم ذاك، فإن الحاصل أن جوخ لم يكن مستقيمًا في حياته الاجتماعية والنفسية، وكان بحاجة إلى رعاية صحية اجتماعية أكثر مما كان متوفرًا.

وإذا كانت هذه هي حالته النفسية والاجتماعية فترى كيف كانت حياته العاطفية؟ الحقيقة إنها كانت على نفس المنوال، تخبط وتيه وتشرذم ينم عن شخصية مفككة من الداخل قبل أن تكون مفككة من الخارج. إننا إذا رصدنا حياة جوخ العاطفية والرومانسية نجد أنه لم يرتبط بسوى امرأة واحدة فقط سنحكي عنها تفصيلًا، لكن في بداية حياته سلك جوخ الطريق التقليدي بالتقدم إلى قريبته كارولين وهو ابن 19 عامًا فقط، لكنها رفضته وتزوجت شخصًا آخر.

مرَّ الموقف بسلام بغير أثر يُذكر، ثم بعد سنوات اشتعلت مشاعر الحب الحقيقية لديه، كانت في عام 1873م حينما سافر جوخ إلى لندن للعمل مع بائع لوحات فنية، فهناك وقع في حب الفتاة يوجين، ابنة مدير المدرسة الذي قدم له الشقة المؤجرة، تطورت علاقة جوخ بيوجين سريعًا، وما إن صارحها جوخ بعشقه لها حتى أخبرته بأنها مخطوبة -سرًّا- لشخص آخر يُدعى صامويل، فتحطمت آمال جوخ في الاستقرار العاطفي، وشعر بالألم جراء الندبة التي تركتها هذه التجربة في قلبه، فبدأ يتجه إلى طريق مغاير تمامًا بعيدًا عن الحب والزواج التقليدي.

لكن قبل أن يطرح جوخ الأمل في معايشة تجربة حب حقيقي حاول محاولة أخيرة وتقدم إلى قريبته كي Kee واصفًا حبه إياها قائلًا: ”لا أجد كلمات أنسب من القول بأن كي هي أقرب إنسانة لي وأنا أقرب إنسان لها“. ثابر جوخ مثابرة مضنية في الارتباط بهذه الفتاة، لكن لم يُوفَّق جوخ في الزواج بها، بل إنها رفضته بطريقة مهينة بردِّها عليه: ”لا، كلا، أبدًا! No, Nay, Never“ وعلى الرغم من ذلك لم ييأس وسافر إلى بيتها وجلس مع عائلتها مرارًا، إلا أنهم رفضوه بشكل قاطع ونصحوه بأن ينساها.

كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر جوخ المضطرب، فطلَّق فكرة الحب ثلاثًا واتجه إلى فتيات الليل وبائعات الهوى، تلك الفتيات اللاتي وصفهن بـ ”هؤلاء النساء اللواتي يلعنهم رجال الدين ويحتقرونهم ويدينونهم من على المنبر“، فيما أشبه برد فعل انتقامي على ما عايشه من محاولات زواج فاشلة. وسيظل منذ ذلك الحين إلى آخر حياته يعشق الذهاب إلى بيوت الدعارة من أجل قضاء أوقات المتعة مع النساء، لقد ارتكب الزنا عددًا لا يُحصى من المرات، لم يستطع التاريخ

تحديد الرقم لكثرته وتنوعه في البلدان والأمصار بين النساء والفتيات.

أدى به هذا الطريق الفاسد إلى تعلقه بإحدى فتيات الليل وهي فتاة ليل هولندية تدعى كريستين هورنيك، ومن أجل صبغ اسمها وإخفاء تاريخها الملوث أطلق عليها جوخ اسم "سِين"، فمن هي سين هذه؟

سين هي فتاة تجوب الشوارع بحثًا عن زبائن المتعة، نشأت في بيت فاسد، حيث تركها أبوها وهي صغيرة فاتجهت أمها إلى الدعارة، ومن ثمَّ لم يكن مستغرَبًا أن تتجه سين كذلك إلى الدعارة أيضًا.

مَشَى الطاووسُ يومًا باعْوجاجٍ *** فقلدَ شكلَ مشيتهِ بنوهُ

فقالَ علامَ تختالونَ؟ قالوا: *** بدأْتَ به ونحنُ مقلِّدوهُ

فخالِفْ سيركَ المعوجَّ واعدلْ *** فإنا إن عدلْتَ معدلوه

أمَا تدري أبانا كلُّ فرعٍ *** يجاري بالخُطى من أدبوه؟

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا *** عَلى ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ

ذاقت سين الأمرَّين في مهنتها القذرة، فقد حملت من أحد الزبائن المجهولين، فأنجبت طفلة لا تعرف حتى من والدها،

ولم يثنها هذا عن طريق الفساد، وإنما استمرت في مسلك العهر. هذه الفتاة المفككة اختارها تحديدًا جوخ، مع ابنتها ذات الخمسة أعوام، لكنه لاحظ أنها حامل مرة أخرى، من الزنا أيضًا، وغض الطرف عن ذلك، ثم صحبها من الشارع لتعيش معه في منزله المتواضع.

والظاهر أن حب جوخ لسين لم يكن طاغيًا، هذا إن سميناه حبًّا أصلًا ولم يكن مجرد نزوات عابرة، ووصف جوخ نفسه حالته الشعورية حينذاك قائلًا: «مشاعري تجاهها أقل حماسة من مشاعري العام الماضي تجاه كي، لكن هذا هو النوع الوحيد من الحب الذي يمكنني القيام به (...) أنا وهي اثنان من سيئي الحظ نحافظ على بعضنا بعضًا معًا ونتحمل العبء معًا». ولعل القارئ يلاحظ بسهولة في ثنايا الكلام أن حرارة الحب بينهما ضعيفة والمشاعر فاترة، لكن يبدو أن جوخ أراد تعويض إحساس الحب المفقود عنده بأي شكل ولو على حساب علاقة ضارة و«سامة» بهذا الشكل.

لم يعرض جوخ الزواج على سين، لكنه للمفارقة عرض على والديه الأمر، ولا نحتاج إلى كم الإحباط والحزن الممزوجَين

بالغضب والحنقة جراء هذا الخبر البائس. وبعد فترة وجيزة، في 1882م، أُصيب جوخ بالزهري، وهو مرض جنسي ينتقل عبر الممارسة الجنسية غير الصحية خصوصًا مع بائعات الهوى.

استمر جوخ في رسم لوحاته الفنية مستعينًا بسين كموديل، التي لم تكن الأم المثالية على الإطلاق، فقد أدمنت شرب الخمر، وكانت شديدة الإهمال لولديها، تدخن باستمرار، ولا تلتفت لحياتها الزوجية.

وفوق تحمله لمصاريف زوجته وابنتها وطفلها ويليام، طرقت باب جوخ مشكلة أخرى، إذ إن شقيق سين قد دفع زوجته إلى الدعارة ثم طلقها، وبعدما وجد نفسه بلا عمل، اتجه لاستعمال سين نفسها في الدعارة بمساعدة أمها دون علم جوخ، وادَّعوا البطالة، فتحمل جوخ عبء مصاريف أم سين وسين نفسها وطفليها. اشتد الضيق بجوخ فأرسل إلى أخيه ليقابله ليفاجأ أن أخاه بدوره قد تزوج بائعة هوى أيضًا، فظلا يتشاركان البؤس معًا.

بعد ستة أشهر من ارتباطهما لم يكن جوخ يعلم بعد أن رفيقته اتجهت للدعارة، أخبر جوخ سين بأنه ذاهب إلى المقاطعة من أجل البحث عن وظيفة، وبدلًا من الاتجاه لمقابلات العمل ظل يذهب إلى البار -الخمارة- ليفرط في الشرب حتى السكر. وبعد ستة أشهر رجع من رحلته ليكتشف أن زوجته عادت إلى الدعارة، لم يطق جوخ أكثر من ذلك، فانفصل الطرفان عن بعضهما بعضًا.

حاول جوخ العودة إلى الحب، وتقدم إلى جارة والديه مارجريت، لكنها بدورها أغلقت الباب أمامه، ثم أقدمت على الانتحار وأكلت سم الفئران، فأضحت فكرة الحب أكثر استحالة في نظره.

وعلى جانب الأصدقاء، كان جوخ محبًّا للجنس أكثر من حبه للحياة، كما وصف أحد أصدقائه، كما أن حياته لم تخلُ من الاضطرابات المليئة بالعنف، فذات ليلة وفي أثناء نقاش حاد مع صديقه الوحيد بول جوجان هدَّده جوخ بآلة حادة، تصاعد الجدل بينهما وبطريقة أو بأخرى قطع جوخ الجزء الأسفل من أذنه -أذن جوخ نفسه- عوضًا عن ذلك، ومن ثم

عاد ليقيم علاقاته مع فتيات الليل، حيث أهدى إحداهن شحمة أذنه المقطوعة في بادرة رومانسية لا يقوم بها سوى إنسان مضطرب مثل فان جوخ.

لخص جوخ حياته العاطفية وندمه عما اقترف في رسالته لأخته قبل انتحاره قائلًا: «من ناحيتي، ما زلت أعاني باستمرار من أكثر علاقات الحب استحالة وغير مناسبة والتي، كقاعدة عامة، لا أخرج منها إلا مع الخزي والعار».

لا يحتاج المرء إلى كثير من الشرح كي يستخلص العِبر من انتحار فان جوخ، لقد كان جوخ أشبه بحطام إنسان لا بإنسان، فنفسيًّا كان مصابًا باضطرابات شديدة تحتاج إلى علاج ورعاية خاصة، واجتماعيًّا كان غير قادر على التواصل وإنشاء صداقات ومعارف وعلاقات صحية، وعاطفيًّا كان يبوء بالفشل في كل تجربة أكثر من سابقتها حتى أرغم نفسه على علاقة سامة حاول فيها أن يعوِّض آلامه بآلام أخرى أشد ضررًا، أما جنسيًّا فقد أُصيب بالزهري جراء فوضى الزنا التي غمرت حياته من أولها إلى آخرها، ناهيك بحياته غير المستقرة ماليًّا وأسريًّا ودراسيًّا، وتنقلاته المتعددة بين المنازل والبلدان،

وعدم تقدير الناس لموهبته (أو عدم قدرته على التسويق لطبيعته المنفرة للناس) حتى إنه لم يبع في حياته كلها سوى لوحة واحدة، وقيل بضع لوحات.

ضيَّع جوخ حياته، أو ضاعت، في اللا شيء، وما الذي جناه جوخ من لوحاته بعد وفاته؟ لا شيء.

إذا وضعنا أنفسنا محل ثيو، شقيقه، ترى ماذا كان سيقول عن جوخ؟ إنه يرى أخاه ينفق أمواله في اللهو والدعارة، وكثيرًا ما نصح أخاه بأن يبحث عن مصدر رزق ويكد من أجل ذلك بدلًا من تبذير أمواله في المتعة والضياع، ونصحه مرارًا أن يستمع إلى أبيه وأمه، وأن يجتهد.

كما كان على دوائر جوخ الاجتماعية توجيه النصائح له وتوفير المساعدة الآمنة له، والدعم المناسب لحالته الصحية، عوضًا عن النفور الذي كان يقابله به معظم الناس.

لعل إحدى النصائح التي تلخصها لنا قصة جوخ هو أن الإنسان إذا خطا خطوة نحو الحرام وترك نفسه لنفسه فإنه سينتهي به الحال إلى تضييع حياته، فالكسل يجرُّ وراءه كسلًا، والباطل يتبعه باطل، والسيئة تعقبها سيئة... كان

من المفترض أن يسعى جوخ للتعافي من علاقاته العاطفية الفاشلة، ويتجاوز الآثار السيئة لطفولته، ويكتسب آليات للتكيف مع معاناته وآلامه، ويبحث عن دعم نفسي في دوائره الاجتماعية، ويلجأ إلى الله، حتى يستطيع التغلب على قهر الظروف الخارجية ويقترب من السواء النفسي خطوة خطوة.

لكن عوضًا عن ذلك انغمس جوخ في الضياع، وترك نفسه رهينة لنفسه، فوقع في دائرة لا نهائية من المعاصي وتضييع الأوقات، هذا العبث لن يُكسَر إلا إذا استفاق المرء من غفلته وتيقظ لحاله وبدأ في جمع شتات نفسه، فمتتالية البؤس مغرية ومريحة ولا سبيل للخلاص منها سوى بالتصدي لها والوقوف لها بحزم لإحداث تغيرات عميقة في شخصية المرء والبيئة المحاطة به، قبل أن يقع في حفرة الاكتئاب ويذوق خسارات حقيقية تهدم دنياه، وربما آخرته.

2

"أحرِقوا جثتي ولا تدفنونيَ مع المسلمين"

إسماعيل أدهم (1911-1940)

مفكر، رياضي، فيزيائي، أستاذ جامعي، باحث تاريخي، مثقف، أديب، ناقد.

”أنا أكره الحياة لأنها بلا معنى، كلها من أولها لآخرها عبثية بلا هدف... ادفنوني وحدي، لا تدفنوني في مقابر المسلمين، وأحرِقوا جثتي حتى لا يتبقى منها شيء“.

اختر أي وصف من هؤلاء وسمِّه لإسماعيل أدهم، وستجد أنه ملائم لهذا الشخص المثير للعجب، فقد استخدم كل تلك المسميات في تقديم نفسه في المجلات والمحافل والمؤتمرات، إلى حد أن الكثيرين لاحظوا عليه نبرة فخر مقلقة بالشهادات والدرجات العلمية التي يدعي أنه حصل عليها: واحدة من تركيا، وشهادتان للدكتوراه من روسيا. فكيف انتهى الحال برجل كذاك، في أوج نجاحه وشبابه، يأمل الشاب منا الآن أن يحصل على شهادة واحدة من شهاداته، أن يلقي بنفسه في مياه البحر ليغرق نفسه بنفسه؟!

وُلد إسماعيل أدهم بالإسكندرية في مصر في عام 1911م لأب مسلم تركي وأم مسيحية ألمانية، وكان أبوه (أميرلاي) في الجيش التركي، وعاش طفولته بالأستانة بتركيا، حيث توفيت أمه وهو في الثانية من عمره، لتبدأ حينذاك أولى فصول

الازدواجية في حياة أدهم: فقد تولت تربيته شقيقتاه من أمه، حيث كان والده مشغولًا بالحرب مثقلًا بين ميادينها. كانت الأختان تلقِّنان أدهم تعاليم المسيحية البروتستانتية وتسيران به كل يوم أحد إلى الكنيسة، في الوقت الذي يعلمه أبوه كيفية الصلاة والصيام والنُّسك على الدين الإسلامي.

وعندما وضعت الحرب أوزارها، وتفرغ الأب لأولاده، وجد أن ابنه يكاد يزيغ عن الإسلام، فكلف زوج عمته بتعليمه الإسلام، فاصطحب الطفل لصلاة الجمعة أسبوعيًّا، وكان يحرص على تحفيظه القرآن، وفي رمضان كان يؤكد عليه على الصوم. لكن كان الجانب المسيحي قد تجذر في طفولة الصبي، فرأى أدهم -بعد سنوات- أن هذه الشعائر -الصلاة والصيام- البسيطة، الأساسية لأي مسلم، رآها أدهم تنم عن "عصبية واضحة وتطرف جامح" لدى والده. لكن أي عصبية في تحفيظ القرآن وأي تطرف في صيام رمضان[1]؟

(1) بسبب هذه الملاحظة الغريبة، تشكك الباحثون لاحقًا في مرويات أدهم عن نفسه وقصة حياته، إذ إنه يبالغ دومًا في وصف أشياء لم تكن موجودة كما يصفها، ويستعمل خياله الخصب في تضخيم القليل وتصغير الكثير.

ظل أدهم متأرجحًا بين الإسلام والمسيحية، ويبدو أنه سأم هذا التيه الوجودي في لحظة من اللحظات فقرر أن يتركهما معًا ويتجه إلى رفض كل ما ينغص عليه حياته العقلية ومعيشته الأسرية، فطلَّق الأديان ثلاثًا واتجه إلى الإلحاد في العشرينيات من عمره. ظل إلحاده طي الكتمان ومحصورًا على دوائره القريبة فحسب، لكن حدثت نقلة نوعية في حياة أدهم في عام 1936م حينما ألقى الأديب المصري أحمد زكي أبو شادي محاضرة لأعضاء ندوة الثقافة بالقاهرة بعنوان (عقيدة الألوهية: مذهبي)، فقد نالت المحاضرة قدرًا كبيرًا من الإعجاب والانتشار فانتهز أدهم الفرصة وعلى الفور قام بردٍّ جريء وفريد من نوعه في مصر والعالم الإسلامي بأسره، فقد قام أدهم بكتابة مقال ينقد فيه هذه المحاضرة بعنوان (لماذا أنا ملحد). أعلن أدهم في هذه الرسالة إلحاده وكان أول مصري -وربما عربي- يعلن إلحاده بهذه الصراحة في القرن العشرين، بل وينظِّر لإلحاده وينافح عنه ويدعو الناس إلى اعتناقه. وبعد فترة قصيرة تحول مقال أدهم لاحقًا إلى كتاب مطبوع يُباع عبر منافذ مختلفة دون دار نشر محددة، ولاقى رواجًا بين الأدباء والمثقفين.

حكى أدهم في رسالته هاته ظروفه الأسرية المأساوية التي دفعت به إلى التذبذب بين الإسلام وبين المسيحية، وشرح كيف كان في سنوات طفولته يتلقى تعليمًا إسلاميًّا ثم يذهب مع أهله إلى الكنيسة في الوقت ذاته، وفي أحيان أخرى كان يُلقن الترانيم المسيحية ثم يذهب إلى الصلاة في المسجد في نفس اليوم. وبسبب هذه الازدواجية الدينية نشأ أدهم على حيرة وتيه شديدين لم يجعلا للاستقرار مكانًا في قلبه فاختار في نهاية المطاف "أن يخرج عن الأديان، وأن يتخلى عن كل المعتقدات، وأن يؤمن بالعلم وحده، وبالمنطق العلمي فقط".

وجد أدهم إذن في نجم العلم التجريبي الصاعد في أوروبا ضالته المنشودة وعدَّه طريق الخلاص من شكه وحيرته، وربما يفسر هذا سبب حماسته الشديدة في الدعوة إلى الإلحاد كما يتضح في كتابه الممتلئ بالنظريات العلمية، انظر معي مثلًا إلى صيغة هذه العبارة من كتابه: "فإن قانون الصدفة الشامل أعتبره أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله"[1]. إنه يصور قضية الإلحاد كإنسان يخوض صراعًا داميًا بينه وبين

(1) إسماعيل أدهم، لماذا أنا ملحد؟، مقالة متوفرة إلكترونيًّا، تاريخ الدخول 5 سبتمبر 2018م.

المؤمنين يوجه إلى الضربات بغرض القضاء عليه وإنهاء وجوده، هذه اللهجة العدائية تبين عدم اختياره للإلحاد بناءً على اختيار عقلي محض، وإنما اختلطت -وربما غلبت- فيه العوامل النفسية.

ومنذ أول يوم لنشر رسالته الصادمة بدأت الردود تتوالى على رسالة أدهم، كان من أبرزها رد أحمد أبو شادي نفسه برسالة عنوانها (لماذا أنا مؤمن)، كما رد عليه الكاتب محمد فريد وجدي برسالة أخرى عنوانها (لماذا هو ملحد). نالت هاتان الرسالتان احتفاءً من قبل المتدينين، لكن الرد الأقوى والاحتفاء الأكثف جاء فيما كتبه الشيخ مصطفى صبري -آخر من تولى منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية- في كتابه الضخم (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسَلين) الذي طُبع في أربعة مجلدات، لكنه لم يفرد صفحات الكتاب كله للرد على أدهم فقط، بل كان الرد شاملًا تجاه التيار الحداثي والتنويري المصري برمته.

وهاهنا سؤال: لماذا أثار كتاب أدهم عاصفة من الردود بهذا الشكل؟ الحقيقة إن حساسية الموضوع وحداثته كانتا

عاملين بالتأكيد في تأجيج نار الردود، لكن جدير بالإشارة أن أدهم كان مشهورًا في المجال الأدبي بالفعل، فقد كان كاتبًا جيدًا بالفعل مشهودًا له بالذكاء والنباهة من قِبل العديد من الأدباء والمفكرين[1]، ونشر مقالاته في العديد من المجلات مثل (المقتطف) و(الرسالة) و(الإمام)، حتى إن أحمد الهواري قد جمع مؤلفات أدهم الثلاثين بالإضافة إلى مقالاته المتفرقة فوصلت إلى ثلاثة مجلدات كبيرة، كما دارت بين أدهم وبين بعض الأدباء سجالات أدبية ساخنة في مواضيع أدبية وفكرية مختلفة.

لكن ثمة جانبًا مظلمًا من حياة أدهم قلما يتطرق إليه الباحثون والمتابعون، وهو برأينا أهم ما ينبغي الأخذ به عند الحديث عن انتحار أدهم.

صديقنا أدهم -كما أسلفنا- كان يدَّعي دومًا أنه حصل على شهادة دكتوراه من روسيا، كما زعم أنه كان صديقًا لعدة مستشرقين وأكاديميين ألمان وروس، بالإضافة إلى

(1) انظر: هاني علي نسيرة، الحنين إلى السماء: دراسة في التحول نحو الاتجاه الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين، (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2010م)، ص/ 127-126.

تأليفه للعديد من الكتب باللغتين الروسية والتركية. صارت هذه السيرة الكتابية مشهورة عن أدهم وما يزال يتم الترويج لها بواسطة بعض المثقفين والكتَّاب إلى يومنا هذا، كما فعل الكاتب بلال فضل -مثلًا- في حلقته ببرنامج (عصير الكتب) مع الناقد شعبان يوسف عام 2011م[1].

لكن مصطفى صبري ذكر في معرض رده على أدهم أن أدهم كان ضعيف الدراية باللغة التركية، وبعكس ما يزعم أدهم عن مكثه في تركيا لمدة أربع سنوات ثم رحيله بعدهم إلى روسيا لمدة ثلاث سنوات أخرى[2]، فإن صبري يؤكد أن أدهم لم يلبث في تركيا إلا ستة أشهر فقط ثم عاد بعدهم إلى مصر ولم يمُر على روسيا أصلًا، وعلى الرغم من ذلك فإن صبري يتعجب من الاحتفاء الشديد الذي قوبل به أدهم، وبرر ذلك قائلًا إن أدهم فور عودته إلى مصر "استغله ملاحدة مصر وجعلوا منه فيلسوفًا في أحدث الطرازات حامل الشهادات من روسيا وألمانيا، واستقبلته الصحافة المصرية بفضل إلحاده كأحد النوابغ المفكرين.. [مع أنه] لا يمكنه في مدة وجوده

(1) في برنامج بلال فضل (عصير الكتب) بتاريخ 17/7/2011م.

(2) إسماعيل أدهم، لماذا أنا ملحد.

القصيرة في تركيا إلا أن يلقى فيها بعض ملاحدة الروس أو الألمان وربما الترك أيضًا"[1].

لم يكن مصطفى صبري هو الوحيد الذي شك في قدرات إسماعيل أدهم وفي الشهادات التي ادعى أنه حصل عليها، فقد قام بعض الباحثين بتتبع كل ما نسبه إسماعيل أدهم إلى نفسه، واستنتجوا أنه محض كذب وتلفيق ليس له أي أساس من الحقيقة، ومن ضمن هؤلاء الذين تفحصوا تاريخ أدهم: الصحفي البريطاني براين ويتاكر، الذي أوضح في كتابه (عرب بلا رب Arabs Without God) سبب كذب أدهم وادعائه الزائف حصوله على الشهادات الجامعية ومنح التفوق، فذكر ويتاكر أن إسماعيل أدهم "خاف ألا تؤخذ أعماله على محمل الجد دون مؤهلات جامعية عالية، فجمع قائمة متخيلة من المؤهلات المثيرة للإعجاب، كما ادعى أيضًا أنه كتب سيرة ذاتية للنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- باللغة الألمانية، وثلاثة مجلدات في التاريخ الإسلامي باللغة التركية، ومجلدين في الرياضيات والفيزياء باللغتين الألمانية

(1) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1981م)، 402/2.

والروسية، وثلاثة مجلدات عن النظرية النسبية أيضًا باللغتين الألمانية والروسية، ثم اتضح لاحقًا زيف كل هذه الادعاءات[1].

ويتفق المستشرق جاوتييه يونبول G.H.A. Juynboll مع ويتاكر حيث نشر يونبول في مجلة الأدب العربي Journal of Arabic Literature بحثًا ذكر فيه أن الخلفية الأكاديمية لإسماعيل أدهم «كانت مزورة بالكامل»، وبدأ يونبول مقدمة بحثه قائلًا: «لقد كانت المزاعم التي نسبها أدهم إلى نفسه في أول 25 سنة من حياته بعيدة جدًّا عن الواقع لدرجة أنها يمكن وصفها بأحلام كاذب مريض لا هدف له في الحياة سوى صنع سمعة لنفسه لم يكن يستطيع أن يصنعها بالوسائل التقليدية»[2].

لم يكن لأدهم رسائل أخرى قد دافع فيها عن الإلحاد أو رد فيها على خصومه، وظل مستمرًّا في كتاباته الأدبية فقط، زاعمًا بأنه مستريح إلى إلحاده ومطمئن بمعتقده، كما أوضح ذلك في رسالته قائلًا: «أنا ملحد، ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد

---

(1) بريان ويتاكر، عرب بلا رب: الإلحاد وحرية المعتقد في الشرق الأوسط، نسخة مترجمة متوفرة إلكترونيًّا، ص/ 48. متوفرة على الرابط.

(2) G.H.A. Juynboll, Ismail Ahmad Adham (1911-1940), the Atheist, Journal of Arabic Literature. 3: 1972, pp 54-71.

ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف في إيمانه... وما أعظم ما كانت عليه دهشتي وعَجَبي أنَّني وجدت نفسي أسعدَ حالًا وأكثر اطمئنانًا من حالتي حين كنت أغالبُ النفسَ للاحتفاظ بعقيدتي»[1].

لكن المفارقة هي أن أدهم وُجد في عام 1940م، أي بعد ثلاث سنوات فقط من كتابته لرسالته، غريقًا وجثته تطفو على مياه شاطئ جليم بالإسكندرية، ولم يكن قد أكمل حينئذٍ ثلاثين عامًا بعد، وبعدما تم استخراج جثته وُجد في جيب معطفه رسالة بخط يده تقول إنه «**انتحر وهو في ريعان شبابه بسبب كرهه للحياة وعبثيتها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقابر المسلمين ويطلب إحراقها**[2]». ويرى يونبول أن الدافع الرئيسي لانتحار أدهم هو «خوفه من اكتشاف الناس لاحتياله، وهي الفكرة التي كانت تمثل كابوسًا بالنسبة إليه»[3].

---

(1) إسماعيل أدهم، لماذا أنا ملحد؟

(2) سليمان بن صالح الخراشي، انتحار إسماعيل أدهم: تفاصيل المعركة الفكرية، نسخة دون تاريخ أو مكان للنشر، ص/ 41.

(3) G.H.A. Juynboll, "Ismail Ahmad Adham (1911-1940), the Atheist." Journal of Arabic Literature. 3: 1972, p. 63.

إن هذه الرسالة الانتحارية لا أعدها إلا شهقة عدمية لإنسان محطم يعيش حياته بلا معنى ولا غاية، إنها رسالة لشخص أنهى حياته بسبب شعوره بالخواء ووصَّى من بعده بأن تحرَق جثته وتنثَر في الهواء لأنها انتقلت من الخواء إلى العدم، فأي شقاء يعيشه الإنسان إذا كانت حياته بلا هدف؟ وأي بؤس يحيط حياة الإنسان إذا خلت من المعنى؟!

حاول أدهم أن يعوض عقده الناشئة منذ طفولته بقرار الإلحاد، لكنه لم يدرِ أنه كما حاول أن يسرع طريق الشهرة فكذب من أجل ترويج أفكاره، كما سعى للتخلص من وحدته فأردى نفسه غريقًا، أين العقل حين قرر أدهم كل هذه المآسي المتتالية؟ على الرغم من حياته القصيرة، فإنها امتلأت بالقرارات الخاطئة والكارثية، ألم يكن هناك سبل أخرى لحل مشكلاته؟

كان من الممكن أن يدقق أدهم النظر في الدين من أجل تمحيص الحق من الباطل ومعرفة الصحيح من السقيم، وهذا النظر ذاته هو ما طالب به القرآن في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ

ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ...﴾ [سبأ: 46]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4].

أما اتخاذ قرار الإلحاد بهذه النفسية العدائية فلن تجدي في حل مشكلة التيه الوجودي، وإنما هي راحة مؤقتة ولذة مصطنعة، لا تلبث أن تتلاشى في اللحظة التي يستفيق فيها الإنسان من غفلة اللهو، ويتفكر في حياته ووجوده وفي السماوات والأرض، عندئذٍ لن ينفعه قرار الإلحاد في شيء، بل سيزيده شقاءً وسيزيد الوجود قسوةً، وستصبح حياته غير جديرة بالبقاء.

وصدق الدكتور حسام الدين حامد حين قال: «لو قيل لي اجمع الإلحاد في كلمة واحدة، لا يجاوز وصفه رسمها، ولا تندُّ حقيقته عن حرفها، لقلت: (التوهم)، ولو تمثل العدم غرضًا يُطلب، وأملًا يُرتجى في تحصيله، لكان العدم هو غاية الملحد

من هذه الحياة، ينطلقون من وهم معدوم، ويطمعون في عدم متوهم»[1].

لو تفكر الملحدون والماديون في واقعهم ومعاناتهم، لو تأملوا في الخواء والعدم والفراغ الوجودي السرمدي الذي يحيط العالم المادي من كل جوانبه، لو أطلقوا فكرهم في غياب المعنى وغياب القدسية عن الحياة وغياب الغاية من الوجود، لكان مصيرهم نفس مصير إسماعيل أدهم البائس، الذي يبدو أن ملهيات عصره لم تكن كافية لتشغله عن فكرة الانتحار، على نقيض أيامنا هذا التي تتوفر فيها وسائل الإلهاء والترفيه واللهو في كل لحظة وداخل كل بيت.

ولذلك فإن المهرج الملحد، الأمريكي جورج كارولين، يسخر في فقرة كاملة أمام جمهور عريض من فكرة «قدسية الحياة» مرددًا بأنها فكرة تافهة اخترعها البشر ويسخر منها لأنها -في نظره- كذبة لا حقيقة لها. إنها فكرة مرعبة أن تحيا بلا أي معنى، بقليل من التأمل سيدرك الملحد أن الظلم

(1) حسام الدين حامد، الإلحاد: وثوقية التوهم وخواء العدم، القاهرة: مركز تفكر، 2015، ص/ 8.

والإرهاق والمعاناة لا معنى لتحملهم، والحياة لا تستحق أن تعاش، وفكرة الحياة نفسها فكرة عبثية لا معنى لها.

إن أول سؤال كان عالم النفس المرموق فيكتور فرانكل يسأله لمرضاه هو: «لماذا لم تنتحر؟». وبغياب المعنى يغرق المرضى في فخ العدمية حتى يصير الانتحار بالنسبة إليهم حلًّا لمشكلة الوجود البائس، ولذا كتب فرانكل كتابه العظيم «الإنسان يبحث عن المعنى».

ولذلك، من أجل أن يتفادى الملحدون فكرة الانتحار، وفي عالم طغت عليه المادية الجارفة، ينبغي لمن يدير النظام المادي أن يلهي الناس عن حقيقة المعاناة، لا يستطيع الجماهير التفكر في معاناتهم ولن نعطي فرصة للناس للتأمل في الوجود والحياة والموت، وإنما سنشتت أذهانهم، سنعطل عقولهم... هذا بالضبط هو ما أشار إليه المخرج ألين. هل تعلم أن مخرجي الأفلام وصانعي السينما لا هدف لهم سوى إغراق الناس في المتع اللحظية، من أجل إشغال الناس وإشغال أنفسهم أيضًا عن التفكر في المعنى من الحياة؟ هذا بالضبط ما صرح به المخرج الشهير وودي آلن في أحد

مؤتمراته، حيث ذكر أن مهمة مخرجي السينما هي تشتيت الناس عن حقيقة الحياة، ليعيشوا لحظات من المتعة بعيدًا عن مواجهة الواقع.

وقد صور نجيب محفوظ حياة الغالبية الكاسحة من الناس في روايته «الشحاذ» حين قال: «ألم يخطر ببالك يومًا أن تتساءل عن معنى حياتك؟ فضحك الدكتور عاليًا ثم قال: لا وقت عندي لذلك»[1].

وفي المقابل فإن الإنسان الذي يمتلك عقيدة واضحة، ورؤية كونية متسقة، وإيمان بالله مبني على البرهان والدليل، وقرآن يُتلى آناء الليل وأطراف النهار، يستطيع أن يتحمل الظروف ويتغلب على قسوة العالم مهما كانت المعاناة. أو كما قال نيتشه: «من عنده [لمَ؟] يمكنه تحمل العيش تحت أي [كيف؟]».

فهذا الإنسان يصبر على بلاءات الحياة، وكدِّ العيش، فالبلاء جوهر الحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2]. ويقرر القرآن

(1) نجيب محفوظ، رواية الشحاذ، مطبوعات مكتبة مصر، ص/ 10.

حقيقة شقاء الإنسان في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

ويوجه القرآن بوصلة الإنسان نحو الدار الآخرة، ففيها المقام وفيها القرار، وإليها المآل وعليها الميزان، وكلما زاد تعلق الإنسان بالدنيا جاء القرآن ليرده إلى الآخرة، وكلما تشكو من كدر الدنيا نبَّهه إلى عدم الالتفات لزينة الدنيا والسعي للآخرة، وكلما افتتن المؤمن بالمنعَّمين ذكَّره القرآن بالجنة والنار، وملاك الأمر: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: 16، 17].

3

“

«إن حل الألم هو الموت»

إرنست همنجواي (1899-1961)

كاتب أمريكي

حاصل على جائزة نوبل في الأدب

”

"لقد قتل أبي نفسه، وفي الغالب سأسلك نفس الطريق... أما قطتي فقد صدمتها سيارة وأُصيبت بكسور عديدة، لم أتحمل مسؤولية عنائها، فأطلقت النار عليها وقتلتها، لقد أطلقت النيران كثيرًا لكنني لم أتصور أن أطلق النار على شخص أحببته لمدة إحدى عشرة سنة".

إرنست هيمنجواي هو أحد رموز الأدب الكلاسيكي الأمريكي في ثلاثينيات القرن الماضي، لا يكاد يوجد طالب أمريكي حديث إلا وقد درس جزءًا من حياته أو نبذة عن أسلوبه الأدبي أو قبسًا من رواياته. رسم هيمنجواي من خلال رواياته "لمن تقرع الأجراس" و "وداعًا أيها السلاح" و "ولا تزال الشمس تشرق" ملامح الرواية الأمريكية وذاع صيته في الأدب العالمي بصفته من رواد الأدب الأمريكي.

وبسبب إبداعه في حقل الأدب فاز هيمنجواي بجائزة نوبل للآداب عام 1954م تكريمًا لجهوده في إحياء الأدب الأمريكي، على الرغم من أنه لم ينشر في حياته سوى سبع روايات وست مجموعات قصصية وكتابين آخرين، لكن حسه المتميز وقلمه المبدع بالإضافة إلى ثقافته الواسعة ضمنوا له مكانة مرموقة في المشهد الأدبي المعاصر، واستطاع أن ينصب لنفسه مكانًا

في التراث الأمريكي حتى صارت رواياته عمودًا أصيلًا من أعمدة الكلاسيكيات الأمريكية.

فما السر الذي يدفع شخصًا بمثل هذا النجاح، والذي أثر حرفيًّا في مسار الأمة الأمريكية بأسرها، وباعت رواياته ملايين النسخ حول العالم، وألهمت آلاف القراء والمؤلفين والروائيين، إلى الانتحار؟

وُلد إرنست هيمنجواي عام 1899م في أثناء فترة مخاض الثقافة الأمريكية المستقلة عن الأنماط الأوروبية والإنجليزية، وأضاف هيمنجواي للشخصية الأمريكية -القادمة حديثًا من أوروبا والراغبة في الانفكاك عنها- أسلوبًا أدبيًّا خاصًّا وتركيبة أسلوبية فريدة شكلت مزيجًا وتطورًا للأسلوب الأدبي الإنجليزي، مما ساهم في إثراء الأدب الأمريكي نوعيًّا وأثَّر على الروائيين الأمريكيين والأدباء بوجه عام منذ ذلك الوقت فصاعدًا.

وُلد هيمنجواي عام 1899م بإحدى ضواحي شيكاجو، تمتع والده بصحة جيدة وتعليم راقٍ، وكان يأخذه في جولات صيفية لتعليمه الصيد في البرية، فشغف إرنست بالصيد حبًّا

وصار له عادة ستؤثر عليه في المستقبل وهي الصيد البري في صحاري أفريقيا. أما أمه فكانت امرأة ذكية، وقارئة، وشاعرة، وعازفة، وكانت تصمم الأثاث وتصنعه أحيانًا.

التزم والداه بالديانة البروتستانتية التزامًا صارمًا، جعل الأم تعاقب أبناءها إذا أخطؤوا بصفعهم بفرشاة الأسنان، أما إذا تفوه ابنها بكلمة غير لائقة في البيت فإنها تجعلهم يأكلون الصابون المُرَّ عقابًا لهم. هذه الأساليب العقابية القاسية لم تكن هي الطاغية على أسلوب الوالدين التربوي، فعلى جانب آخر حرص الوالدان على تنشئة أولادهما بشكل مهذب وصحي، وهو ما حصل لإرنست وإخوته الستة بالفعل.

نشأ هيمنجواي في هذه الأسرة المهذبة وارثًا القيم المحافظة من والديه: العفة قبل الزواج، التزام الصدق والأمانة، توقير الوالدين، والابتعاد عن التدخين وشرب الخمر. لكن ثمة منعطفًا خطيرًا حدث في حياة هيمنجواي، إذ إنه منذ فترة مراهقته، وما يصاحبها من رغبة في التمرد والخروج عن طاعة الوالدين، قد أصرَّ على سلوك اتجاه مغاير تمامًا لاتجاه والديه، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة فترة المراهقة وحنقه على

أساليب والديه العقابية المؤذية بالإضافة إلى ثقافته واطلاعه الواسع آنذاك، مما ولَّد عنده إحساسًا بالتفرد والتفوق والميل نحو الثورة على كل ما هو تقليدي وموروث وأُسري.

ترك هيمنجواي الإيمان المسيحي في السابعة عشرة من عمره واعتنق الإلحاد، وعلى الرغم من أنه كان يؤكد لأمه بعد ثلاث سنوات أنه كان يصلي وإيمانه قوي، فإنه كان يكذب عليها، بل إنه كان يرى أن الدين المنظم تهديد للإنسانية، وتقول هادلي، زوجته الأولى، إنها لم تشاهده يصلي سوى مرتين: مرة عند زفافهما، ومرة عند تعميد ابنهما، وكانا طقسَين فارغين من المعنى لا يتجاوزان المظهر الفولكلوري أمام الناس فحسب.

وهاهنا ملاحظة لطيفة: ففي حين تخلى هيمنجواي عن عبادة الرب في السماء إلا أنه لم يتخلَّ عن العبادة كسلوك إنساني، بمعنى أن كل إنسان له معبوده الذي يرفعه إلى درجة القداسة فيخضع له ويتبع سلطانه فيشكِّل له قيمه وأخلاقه ويصيغ له تصوراته ومناهجه، سواء وعى ذلك أم لم يعِه، ولقد كان المعبود الذي ارتضاه هيمنجواي لنفسه هو ذوقه الخاص:

أي إنه لم يرضَ أن يعبد أفكارًا صنعها له غيره ورضي أن يعبد أفكاره التي يصنعها لنفسه، بما أن عقله هو سلطانه الذي لا يغلبه سلطان.

وبالعودة إلى حياة هيمنجواي المراهق فإننا نجد أن الكذب لازم شخصية هيمنجواي منذ طفولته إلى مماته، فقد أخبر والديه أنه خطب الممثلة ماي ماريس على الرغم من أنه لم يكن قد رآها سوى في فيلم على الشاشة، كما كان يخبر زملاءه في كنساس سيتي بأن خاتم خطبته كان ثمنه 150 دولارًا. ثم يكبر هيمنجواي ويشتد عوده وفي الثامنة عشرة يخبر أحد أصدقائه بأنه اصطاد سمكة كبيرة بينما في الحقيقة كان قد اشتراها من السوق، وفي هذا السن وطيلة شبابه كان أحيانًا يدَّعي أن أصوله من الهند وأنه له بنات هندية، كما كان يروي قصصًا كاذبه عن احترافه للملاكمة في حين أنه كان هاويًا لا أكثر، وفي تصرف غير مفهوم كان يدعي أن أخته قد اغتُصبت من أحد الشواذ جنسيًّا، ثم يقول إنها طُلِّقت، وأحيانًا يقول إنها ماتت. بينما كانت سعيدة مع زوجها دون أي مشكلات من تلك التي يرسمها في مخيلاته.

وعندما خدم هيمنجواي في الجيش الإيطالي في وحدة إسعاف ادعى لأصدقائه أنه تطوع كمقاتل ولكنه رُفض، وهذا أمر لم يحدث وغير ثابت تاريخيًّا في السجلات الرسمية. وفي بعض الأحيان ادعى أنه خدم في فوج المشاه الإيطالي بالفعل وحارب في ثلاث معارك كبيرة بالفعل، كما أخبر أحد أصدقائه بأنه كان قائد كتيبة ثم سرية في سن التاسعة عشرة.

حسنًا، ربما يكون هذا طيش الشباب، فترة مراهقة طبيعية وستنقضي فور ولوجه إلى طور الرشد والأبوة، فهل استعاد توازنه والتزم الصدق بعد زواجه بالفعل؟ على النقيض؛ تزوج هيمنجواي ثلاث مرات وفي كل مرة كان يكذب حول تفاصيل الزواج والطلاق والتسويات القانونية، كان يكذب على زوجاته وأمه وجميع الناس. قالت عنه مارثا، زوجته الثالثة: "إنه أكثر إنسان كذاب منذ مونشهاوزن". ومونشهاوزن هذا ملقب بـ "البارون الكذاب" في ألمانيا.

سيكون للصدق إذن مكانة دنيئة في حياة هيمنجواي، سيكذب بوعي ودون تفكير، لقد أقر تلك الحقيقة عندما سطَّر في قصته "بيت الجندي" من خلال شخصية (كريز)

كلمات تدل على منهجه: "من الطبيعي أن يكون أفضل الكُتّاب كذابين".

وعلى مستوى العلاقات العاطفية كان ثمة أزمة ضخمة في سلوك هيمنجواي منذ شبابه، ففي عام 1917م خدم هيمنجواي في وحدة إسعاف بإيطاليا وأُصيب هناك جراء انفجار بالقرب منه واخترقت جسده بعض الشظايا فاضطر إلى دخول المشفى، قضى هيمنجواي ستة أشهر كاملة لتلقي العلاج المناسب ووقع في حب ممرضة هناك، وقبل أن يرجع أمريكا اتفق معها على الزواج بعد شهرين بعدما تنتهي خدمتها في الجيش، لكنه فوجئ برسالة منها تخبره بأنها هجرته وتزوجت بضابط إيطالي.

أحسَّ هيمنجواي بالغدر، ولعل هذه التجربة أفقدته الثقة في بناء علاقات صحية مع أي امرأة، ومنذ ذلك الوقت سيتبع هيمنجواي نمطًا واحدًا: هجر المرأة التي سيتزوجها قبل أن تتخلى هي عنه، كما يؤكد مؤرخ حياته جيفري مايرز.

تزوج هيمنجواي من مقر سكنه شيكاجو الفتاة هادلي ريتشاردسون، وتصادف مع زواجه تعيينه مراسلًا خارجيًّا

لمجلة Toronto Star واستقر به المقام في أوروبا، تحديدًا في باريس. توفرت لديه كل أحلامه: زوجة جميلة، دخل مستقر، وسكن في أفخم العواصم الأوروبية. فهل استغل هيمنجواي هذه المساحة لتشكيل أرضية ثابتة يستطيع منها الانطلاق إلى عالم الإبداع والتأليف؟

طالب الدنيا لا يشبع، ويبدو أن هيمنجواي بدأ يشعر بالملل من الحياة الرتيبة، ولم يرضَ بكل ما يملكه، اتجه لخيانة زوجته عام 1926م مع بولين فايفر عندما كانت تعمل كمراسلة في باريس لمجلة Vogue، وفي نفس العام تكتشف زوجته العلاقة السرية مع عشيقته بولين، فتطلب منه الطلاق، ويتجه هيمنجواي إلى عشيقته ليتزوجها في العام المقبل، ويرجع بها إلى أمريكا مستقرًّا هناك.

ومرة أخرى يمكننا ملاحظة الكذب في الزيجة الثانية لهيمنجواي، فنظرًا لخلفيته الإلحادية، كان العائق الوحيد أمام هيمنجواي للزواج بعشيقته بولين هو أنها قادمة من عائلة كاثوليكية صارمة، منعت تقاليد عائلة بولين الارتباط بشخص زنديق لا يؤمن بالله، لكن بالنسبة إلى هيمنجواي

كان الحل سهلًا، فقد أعلن اعتناقه للكاثوليكية، دون أي فهم لها أو أي سلوك غيَّر من حياته بسبب هذا الدين الجديد، وظهر ذلك في زواجه، إذ إنه كان يستشيط غضبًا إذا حاولت بولين فرض قواعد دينية عليه، وظهر إلحاد هيمنجواي وسخريته من المسيح عندما رسمه في أحد كتبه في صورة ساخرة مدنسة كما رسم عملية الصلب في محاكاة تجديفية، وفي نهاية المطاف اختصر هيمنجواي الطريق وتخلى عن ادعائه المظهري للكاثوليكية بعد أن تركها وطلقها.

ومرة أخرى يسافر هيمنجواي إلى أوروبا في مهمة صحفية ويتعرف على الصحفية مارثا جيلهورن، ويقيم معها علاقة حميمية، وتتطور بينهما الأمور بسرعة، وعلى الكفة الأخرى من الميزان تتدهور العلاقة بينه وبين زوجته بشكل أسرع، فينتهي الحال بزوجته بولين إلى الطلاق، ويذهب للزواج بعشيقته الجديدة مارثا، ويستقر بها في كوبا.

ولا تتعجب أيها القارئ الكريم عندما تعرف أنه وللمرة الثالثة يسافر هيمنجواي إلى أوروبا ويعيد نفس السيناريو: يتعرف على فتاة حسناء، ماري، التي يقع في غرامها على

الفور، ثم تطلب منه زوجته الطلاق، فيطلق زوجته، ويتزوج ماري.

في عام 1928م أرسلت برقية إلى إرنست هيمنجواي تفيد أن والده انتحر. شعر إرنست بالدمار، وعلَّق قائلًا: "من المحتمل أن أسلك نفس الطريق"، لكنه بعد أن استجمع شتات نفسه بدأ يصرِّح للوسائل الإعلامية بأنه يكره والده لأنه "جبان لأنه لم يواجه مشكلاته، إنه أسوأ أب يمكن لإنسان أن يحظى بمثله"، وظل في رواياته يصور أباه بصورة الضعيف العاجز. وللمفارقة، انتحر هيمنجواي وشقيقه ليسستر وأخته أورسولا بعد انتحار والدهما بسنوات، وتلحقهما من بعدهما حفيدته لتلاقي نفس مصيرهما.

ألقى هيمنجواي باللوم على والدته عن كل إخفاقاته الشخصية بل وعن انتحار والده، وهو توبيخ ظالم بالطبع، لا سيما إن عرفنا موقفه من والدته، فقد كان شديد التقصير مع أمه، ونتيجة لعدم حبه لها كتبت له في عام 1920م رسالة تتحسر فيها على ضياع ابنها ومراهقته الفكرية والاجتماعية، وتحذره: "إذا لم تتب يا بني لرشدك وتكف عن كسلك وتسكعك

وبحثك عن الملذات واستغلال وجهك الوسيم وإهمال واجباتك نحو الله... لن يكون في انتظارك سوى الإفلاس، بعد أن تكون قد سحبت أكثر من الرصيد". ولم يتقبل هيمنجواي الرسالة بصدر رحب، بل بدأ معاملة أمه منذ ذلك الوقت كعدو.

في الحقيقة لم تكن أم هيمنجواي الأم المثالية، أحد أكبر أخطائها أنها كانت تتمنى فتاة قبل أن تلد هيمنجواي، فلما جاء المولود ذكرًا بدأت في معايشته لحياة الفتيات، وكانت تصوِّره مع أخته الكبرى وهما يرتديان تنورة قصيرة وقبعة مزهرة وتناديه بــ "فويتي"، كما أنها كانت أحيانًا تتسلط على زوجها، الذي ينصاع لها في كل مرة تقريبًا. بسبب قسوة بعض التصرفات كان هيمنجواي يهرول -حرفيًّا- خارج البيت هربًا من عقاب والديه.

ومهما كان فإن أمه بالتأكيد لم تكن تستحق تلك المعاملة، لقد رفض هيمنجواي زيارتها أو قدومها لزيارته في كبرها. دوس باسوس، أحد أصدقاء هيمنجواي المقربين، كان يصرِّح في اندهاش أن الرجل الوحيد الذي لقيه في حياته ووجده يكره أمه لتلك الدرجة هو إرنست هيمنجواي، ويقول: "كان

لا يشير إلى أمه إلا بـ (تلك القحبة)، وكثيرًا ما كان يخبرني بكرهه لها".

وبالانتقال إلى جانبه الأدبي، فقد طور هيمنجواي أسلوبه الأدبي الخاص واجتهد للغاية في تحسين مخرجات أعماله، وكان يجلس بالأيام والأسابيع ساهرًا من أجل شطب وتعديل وحذف وإضافة الفقرات في رواياته وقصصه، استطاع بفضل موهبته وجهده أن يعمِّم ذوقه الفريد على الناس.

لكن إحدى خصائص هيمنجواي هو أنه لا ينفصل عن موضوعات كتبه وبخاصة جوها النفسي، فمحاكاة حياته تتم عبر معايشتها، ومن خلال رفضه للقيم الدينية صاغ عالمه الخاص من القيم والأخلاق، القيم التي يراها هو صالحة والقيم التي يراها طالحة، كانت مرجعيته الوحيدة هي عقله.

في أواخر حياته انكب هيمنجواي على شرب الخمر وأفرط في السُكر إلى حد مَرضي، تلقى بعض الصدمات بسيارته نظرًا لسيره في الشارع وهو سكران، وأصيبت كليته جراء الشرب المفرط ونصحه الأطباء بالإقلاع عن الخمر لكنه لم يستجب لهم، أتلفت الخمر مخه، وعلى الرغم من أنه سمَّى

والده جبانًا لارتكابه الانتحار، فقد أقدم على الانتحار عام 1961م لكنه نجا من تلك المحاولة وخضع بعدها للعلاج بالصدمات الكهربائية، لكنه أشرف مرة أخرى على الانتحار بعد شهرين فحسب، وكانت هذه المحاولة هي التي كتبت اسمه في المقابر.

وبحسب مؤرخ حياته أنتوني بيرجيس، كان هيمنجواي، كما كانت شخصيته في كتاباته، كائنًا متدنيًا للغاية. لم يكن سعيدًا بامتيازاته كصائد وملاكم وقائد. لقد أظهر نفسه في صورة أسطورة هوميروسية، الأمر الذي عنى التلفيق والكذب، ليتعامل مع الحياة بوصفها خيالًا.

كلما كبر هيمنجواي في العمر انتزعت قشرة وراء قشرة من اللحاء الذي كان يغطي نفسه به أمام الناس: صورته أمام الناس باتت تتعرى كلما تقدم به السن، كذبه كان يُفتضح، علاقاته كانت تتفكك، كان يتعرى أمام الناس شيئًا فشيئًا ومهما حاول أن يلملم شتات صورته الجماهيرية فإنه لم يعد بإمكانه أن يحافظ على صورته التي بذل حياته من أجل رسمها للناس، فلما بلغ الكشف مبلغه لم يتحمل أن يظل أمام

الناس هكذا فقرر إنهاء حياته، حياته الحقيقية لا الصورية، وأصبح ضحية أفعاله.

إن ثقافة هيمنجواي واطلاعه الواسع قد أهَّلاه بالفعل ليظفر بجائزة نوبل، ويحفر اسمه في التاريخ كأديب أمريكي مرموق. لكنه أخلاقيًّا وقع في وحل لا قاع له، فقد كان يكذب على أمه ويخفي عنها إلحاده في بادئ الأمر، ويخون زوجته الأولى بعدما ظفر بالأمان المادي والاقتصادي معها، ثم يكذب على زوجته الثانية ويتظاهر أمامها بالتدين من أجل نيل رضاها، ويكذب على زوجته الثالثة، كما كان سكّيرًا، مدَّعيًا لبطولات زائفة، مفرطًا في اللهو.

إن الانغماس في ملذات الدنيا دون استشعار معنى الحياة، ودون امتلاك الحد الأدنى من تقدير الذات وقبولها، يؤدي لا محالة إلى ما صنعه هيمنجواي.

ولعل أساليب العقاب القاسية هي التي نشأ هيمنجواي عليها، وغروره الشديد بعقله، وخياناته المتكررة لزوجاته، وكذبه المتواصل حتى آخر لحظات حياته.

في أواخر حياته عانى هيمنجواي مشكلات صحية جسدية متعددة؛ ارتجاج في المخ، وارتفاع ضغط الدم ونسبة الكوليسترول، وحادثتان في طائرة، وطنين في الأذن، ومرض السكري، وفرط حمل الحديد الذي سرى في عائلته. وعلى المستوى النفسي لم يكن الحال أفضل من نظيره الجسدي، فقد نقل أصحابه عنه أنه دخل في حالة من الاكتئاب والتوهم والبارانويا، وفقد قدرته على الكتابة والتواصل، وفشل علاجه النفسي بالصدمات الكهربائية، وحاول الانتحار ثلاث مرات في أثناء نقله من بيته إلى المستشفى.

يبدو أن تراكم هذه الآلام عليه أفقده المعنى من الحياة تمامًا، فلا إيمان بالله ولا قدرة على الكتابة ولا صحة معتدلة ولا رغبة في التواصل، فلأي غاية يستمر هيمنجواي في الحياة؟ ولأي يسبب يتحمل هذه المعاناة؟ ولذلك فإننا نجد أن الطريق الوحيد الذي كان يسلكه هيمنجواي للتهرب من آلامه هو شرب الكحول، والإفراط في الشرب حدَّ السكر وأحيانًا الإغماء.

والسؤال هنا قبل أن تتدهور حالته الصحية بهذا الشكل: ما الذي كان يفتقده هيمنجواي؟ طائرات خاصة، ومنازل راقية

في أنحاء الولايات المتحدة، ويخت شخصي للترفيه، ورحلات صيد برية دائمة، وشهرة عالمية وجائزة نوبل وجائزة بوليتزر...

لقد أخبرنا الله تعالى بأن الانشغال بالحلال عن ذكر الله هو في حد ذاته خسارة، فالله -عز وجل- قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9]. فحتى لو كان مصدر هذه الأموال مصدرًا شرعيًّا وحتى لو كان المرء ينفق من ماله فريضة الزكاة وحتى لو كان أولاده صالحين وفي إطار زواج شرعي سوي، إلا أن الله -عز وجل- حذر المؤمنين من التغافل بهذه المباحات الدنيوية عن الذكر والصلاة، بل وسمَّى سبحانه من ينشغل بهما: خاسرًا!

فما بالك بمن انشغل عن الله -عز وجل- بالحرام والمعاصي والذنوب والآثام وقطع الرحم وعقوق الوالدين وانغمس في اللهو والباطل من رأسه إلى أخمص قدميه؟

كيف ينتظر المرء أن يحيا حياة سليمة وأن ينعم بالصحة النفسية وهو لا يلجأ لله في الشدائد، ولا يعطي اعتبارًا للدين،

ولا يظهِر الانكسار والافتقار بين يدي الله -عز وجل-؟ إن من أعجب حيل الشيطان أن يقنع الإنسان إذا وقع في مشكلات أن يبحث عما يريح باله خارج إطار الوحي وما رسمه لنا من سُبل.

بالتأكيد لا أقول إن العلاقة الطيبة مع الله -عز وجل- هي الضامن الوحيد للصحة النفسية، فبحسب بعض المختصين فإن الصحة النفسية لها ستة أبعاد: التحكم بالذات، والقدرة على التحكم في البيئة المحيطة، ونمو قدرات المرء وتطورها، وحسن العلاقة مع الآخرين، وقبول الذات، والوعي بالغاية من الحياة أو الإيمان بالله[1].

لكني أقول إن الإعراض عن الله -عز وجل- هو أحد المسببات المباشرة والقوية للتعاسة الخالدة والبؤس السرمدي. فكيف يطمئن من لا يركن إلى كنف الله -عز وجل-؟ وكيف يسكن قلب مضطرب لا يأوى إلى جنب الله؟ وكيف يستأنس وحشة الحياة من لا يداوم على ذكر الله -عز وجل-؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(1) Ryff CD, Keyes CL. The structure of psychological well-being revisited. J Pers Soc Psychol. 1995 Oct;69(4):719-27

وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

ونقطة أخرى مهمة، وهي أن هيمنجواي قتل ضميره منذ شبابه قبل أن يقتل نفسه، فلم يكن يؤنب نفسه على خياناته، ولم يلُم نفسه على كذبه، بل استهوى الخداع المستمر ولم يكن يجد غضاضة في أذى من يحب ولا في إخفاء الحقائق ولا في سبِّه لأمه.

لم يسجل هيمنجواي رسالة انتحار قبل وفاته مباشرة، ولكنه ترك رسائل كثيرة في أواخر فترات حياته، وثمة رسائل كثيرة نُسبت إليه زورًا، بعضها موجه لأبنائه، وبعضها إلى محبوبته الأولى في إيطاليا، وبعضها إلى أصدقائه، لكنها جميعًا منحولة. يبدو أن هيمنجواي لم يكن يكترث بالألم الذي سيسببه لمن يعرفهم حال انتحاره، ومتى اكترث هيمنجواي بمن يهتم به أصلًا؟

لكن من ضمن الرسائل التي كشفتها الأيام بعد انتحاره، كتب هيمنجواي مرة أنه في عام 1953م صدمت سيارة قطته، فقرر هيمنجواي قتل قطته بالبندقية، هكذا ببساطة، فلماذا

يضطر القط لتحمل معاناة الألم؟ إن القتل هو الطريق الأسهل لحل مشكلة الألم. وكما قرر هيمنجواي إنهاء حياة القط عوضًا عن تجرع ألم الجسد، قرر إنهاء حياته كذلك بدلًا من الصبر، فبالنهاية: لماذا يصبر إنسان بلا ضمير ولا دين ولا أخلاق على الألم؟

4

"

"أعتقد أني أصاب بالجنون".

مارلين مونرو (1926-1962)

ممثلة ومغنية أمريكية

"

"ما زلت ضائعة. لا أستطيع جمع شتات نفسي. سمعت مرة أحدهم يتحدث عن الممثلين وانتحارهم وأن الحاجز بينهما هو التركيز. أعتقد أني أصاب بالجنون".

”كيف أستمر في الحياة دون
مارلين مونرو؟“

إحدى معجبات مونرو

"هوليوود التي عرفتها كانت هوليوود الفشل... تقريبًا كل شخص قابلته كان يعاني سوء الأكل أو لديه نزوات للانتحار. هوليوود مكان حيث سيدفعون لك آلاف الدولارات مقابل قُبلة، وخمسين سنتًا من أجل روحك. كانت مكانًا بشريًّا أكثر منه جنة قد حلمت بها ووجدتها".

بهذه الكلمات وصفت مارلين مونرو هوليوود، مونرو الممثلة، المغنية، الموديل، الفنانة، صاحبة الأجر الأعلى طوال عقد كامل من الخمسينيات إلى الستينيات، الحاصدة 200 مليون دولار من أفلامها حتى وفاتها عام 1962م، أي ما يعادل مليارَيْ دولار في 2019.

كيف لإنسانة بلغ نجاحها قمم الجبال، وذاع صيتها في العالم أجمع واشتهرت في أرجاء كوكب الأرض بكونها أيقونة

للدلال والجمال، كيف لهذه المرأة التي يتمناها الجميع أن تحطم آمال الجميع وتقدم على إنهاء حياتها بنفسها؟

ربما يكون الجواب السهل هو أن الاكتئاب لا يرحم أحدًا، وربما يؤدي الاكتئاب بالمرء في نهاية المطاف إلى فقدان سيطرته على سلوكه ومن ثمَّ الإشراف على الانتحار، هذه الإجابة ستقدم قدرًا لا بأس به من التعاطف مع مونرو، إذ تبين هذه السردية البسيطة أن ثمة عدو خارجي تربص بمونرو حتى أجهز عليها، مبرئين بذلك ساحة مونرو من أي خطأ... لكن خلف الكواليس قصة أخرى، فإذا غاص المرء في حياة مارلين مونرو ولم يكتفِ بما يقدَّم له على الشاشة، فإنه سيكتشف أن ثمة عالمًا آخر تمامًا يختبئ خلف ذلك الرمز الفاتن، وأن حياة قاتمة وسوداوية تقف بانتظاره.

وُلدت مارلين مونرو، واسمها الحقيقي نورما جين، عام 1926م بلوس أنجلوس، ومنذ لحظة قدومها إلى الدنيا عانت مونرو طفولة بائسة، في التاسعة من عمرها أدركت أن أبويها لم يكونا إلا مجرد شخصين تبنَّياها من ملجأ للأيتام. أمها الحقيقية كانت قد تزوجت بشاب اكتشفت فيما بعد أنه يخونها

مع فتاة أخرى، فطردته من بيتها وعملت على رعاية الأطفال، لكن في ليلة قاتمة تسلل الشاب داخل المنزل وخطف الأطفال، وعادت الأم وحيدة.

حاولت الأم البحث عن أطفالها بلهفة وتتبعت كل دليل لهما في كل مكان حتى وجدتهما أخيرًا، هرولت الأم إلى بيت عيالها وقلبها يخفق بشدة شوقًا إلى أولادها، لتفاجأ بأنهما يعيشان مع أبيهما في بيت ميسور الحال، فنظرت إلى أعينهما وعلمت أنها غير قادرة على توفير لقمة كريمة لهما، فعادت متحسرة إلى منزلها دونهما وتخلت عنهما في موقف لا يمكن وصفه بكلمات. ثم بعد فترة تزوجت، وحملت في نورما جين، لكن زوجها طلقها قبل أن تخرج نورما من بطن أمها.

لم يكن ثمة شيء يمكنه جمع حطام هذه المرأة المنكسرة (أي الأم)، فأخوها (خال مونرو) مات منتحرًا، ووالدها مات في مستشفى الأمراض العقلية، وزوجها خانها، وأولادها في معزل عنها، وفي عام 1933م شُخِّصت الأم باضطراب الشيزوفرانيا. وُلدت مارلين مونرو لهذه المرأة المحطَّمة، وكما هو متوقع، لم تقدِّم أم مونرو أي حنان لابنتها قط، لم يسبق

لها أن قبَّلت ابنتها أو احتضنتها أو تحدثت إليها في أي شيء. في الحقيقة، كانت الأم تلقي بمونرو في ملاجئ للأيتام لأنها لا تستطيع الإنفاق عليها.

تنقلت مونرو بين عدة ملاجئ للأيتام (بإجمالي 11 ملجأ) وتبنتها أسرة تلو الأسرة، فلم تعرف مونرو طعم الاستقرار في طفولتها، وكلما استقر بها المقام عند أسرة ما لا تلبث أن تطردها لتعيدها الأم إلى ملجأ أيتام آخر.

لم يكن حظها موفقًا مع كل من يتبناها، أول خمس سنوات كانت تعيش في استقرار نسبي عند أسرة واحدة، ثم تبع ذلك رحلة لم تتوقف من التنقل. في بعض الأحيان كانت الأسرة يسري فيها الغضب سريان الدم في العروق فلم يكن الجلوس معهم متحمَّلًا، وفي أحيان أخرى كان يتحرش بها الرجل (الأب المتبني) ولا تستطيع أن تنطق شيئًا أمامه، ثم تراه يصلي القداس من أجل غفران ذنوب الآخرين في صورة ثبَّتت نفاق المتدينين في ذهن مونرو للأبد، في حين آخر تستغل الأسرة مونرو كخادمة تغسل الصحون وتنظف الأرض وتقدم الطعام للضيوف لا أكثر.

افتقدت مونرو كل معاني العطف والحنان في طفولتها، وكرد فعل إزاء هذا الحرمان العاطفي، اعتادت في البيوت ألا تتكلم في شيء وألا تفعل شيئًا لتنأى بنفسها بعيدًا عن المشكلات. هذا التقوقع والصمت المطبق كان مؤذنًا بفقدان مونرو للمهارات الاجتماعية اللازمة للتعامل مع الإنسان، وربما كان ذلك أحد أسباب شكوى المنتجين والممثلين المتكرر منها بسبب صعوبة التعامل معها في أثناء وقبل التصوير عندما ذاع صيتها.

افتقدت مونرو الاهتمام في حياتها، كانت تعاملها الأسر كما تعامل الأثاث أو الخادمات المبتذلات، فتمنت مونرو منذ صغرها لفت الانتباه لها، كانت تتحرق شوقًا إلى كلمة إعجاب أو نظرة اهتمام من الناس، لقد صرَّحت بذلك كثيرًا في مذكرة حياتها، إلى حد أنها كثيرًا ما سرحت بخيالها في أحلام اليقظة، لتقتنص لحظات حالمة تتشرب فيها جرعات من السعادة المؤقتة وهي تصور نفسها ترتدي فستانًا جميلًا يعجب المارة ويخطف أنظار الشباب. وما زاد أحلام اليقظة كثافة هو أنها اعتادت أن تكبت مشاعرها عن طريق الكتمان ولا تتفوه بكلمة، فتخبئ جميع الآلام تحت ركام شخصيتها

الواهنة، وربما كان يأتي في دماغها لحظات ينفجر لديها هذا الكبت وترجو لو أنها تخلع ملابسها عارية في قلب الكنيسة، تحريرًا لكل القيود التي تكبل نفسها بها، وعلى قدر ما يبدو هذا الفعل خليعًا وغير منطقي ولا هدف له، إلا أنه بمثابة تنفيس لكل ما تعانيه مونرو من الداخل.

في السادسة عشرة من عمرها تزوجت مونرو، كانت تأمل أن يستخلصها الزواج من هذه المعاناة الطويلة، وكان الأمل لديها أن يوفر لها الزوج دفء المحبة ويعوضها عما حُرِمت منه وهي صغيرة، لكن المأساة ظلت مستمرة، فقد تزوجت مونرو رجلًا لا يفقه معنى الزواج، ولم تدرِ هي نفسها ما هو الزواج، كلاهما أُجبِرا بطريقة أو بأخرى على الزواج، كان زواجًا ورقيًّا فاشلًا لم ينسجم فيه الطرفان معًا. لم يُسدَل الستار إذن على حياتها القديمة، وغابت المودة عن بيتها الجديد، اعتادت الفقد وأحبت الهروب من اللقاءات الزوجية والتجمعات الأسرية، حتى توفي عنها زوجها خلال الحرب العالمية.

لم تفشل مونرو في صغرها في التكيف مع المجتمع فحسب، بل إنها تذكر في مذكراتها أنها قد تولَّد لديها كبت

شديد تجاه كل ما يمس المشاعر في الحياة، لم تحب الجنس، ولم تتعرف على أنوثتها إلا متأخرًا، لم يكن هناك من يعلِّمها ما هو معنى أن تكون فتاة، واستعوضت كل الآلام بكتمانها داخل صدرها ثم تصريفها عن طريق أحلام اليقظة والاستغراق في التخيلات والأوهام.

هذا اللون غير الصحي من التفريغ العاطفي بالإضافة إلى تغييبها عن دعم اجتماعي لها يواسيها ويخفف من آلامها ويضمن لها تنشئة صحية وسوية، دفعها إلى رفض الواقع عن طريق العري والخلاعة، فإن كانت القيم المحافِظة هي التي تسيطر على كل من حولي وإذا كانت مفاتني الأنثوية هي التي تجلب الاهتمام إليَّ، فلمَ لا أتجه إلى المجون والخلاعة من أجل التمرد على الواقع والشعور بالسعادة؟

انتقلت مونرو للعيش وحدها بهوليوود بحثًا عن فرصة عمل كموديل أو كممثلة "كومبارس"، لكنها كأي فتاة في ذلك الوقت تبحث عن "الحلم الأمريكي" عانت في أواخر الأربعينيات بسبب البطالة، بالكاد كانت تجد لقمة عيشها، كانت تعيش في استوديو (شقة متناهية الصغر) ولا تملك سيارة ولا ملابس

كثيرة تناسب وضعها كممثلة، يوميًّا كانت تعاني قلق العيش لليوم التالي: كيف سأنفق؟ من أين سأكتسب المال؟ هل هذه هي النهاية؟

في خضم هذا القلق واللا أمان الاقتصادي، اعتمدت مونرو على استوديو Fox وColumbia وأبرمت معهما عقودًا للعمل بالفعل، وفرحًا بهذا العمل، اشترت لنفسها سيارة بنظام القسط الشهري، لكن دون سابق إنذار قرر كلا المنتجين وقف عقدهما مع مونرو، فوجدت نفسها في ورطة، إذ إنها مطالَبة بتسديد قسط شهري للسيارة وإلا ستُسحَب منها. فماذا ستفعل؟ هل ستنتظر حتى ترى السيارة تنفلت من بين يديها بعدما ذاقت الويلات من أجل الحصول عليها؟

لاحت أمام مونرو فرصة لم تتكرر، إذ عرض عليها أحد المنتجين تصوير جلسة (فوتوسيشن) وهي عارية تمامًا لتوضع الصور على صدارة مفكرة تقويم ميلادي، لم تتردد مونرو في تصوير الجلسة، فبالنهاية هي جلسة واحدة، كما أنها ممثلة مغمورة، فمن ذا الذي سيهتم بجسدها أساسًا؟ فاتجهت مونرو إلى الاستوديو عام 1949م وصورت نفسها

صورًا إغرائية فاضحة، وأخذت أجرها وهي فرِحة بالمال والسيارة.

لم تمثل الصور العارية مشكلة بالنسبة إلى مونرو إلا في جانب واحد فقط، ففي نبرة فخر وتعالي واضحة، تخبرنا مونرو في مذكراتها أنها خافت من شيء واحد فقط: ماذا لو تفاقمت شهرتها وظهرت هذه الصور للعامة؟ ستكون فضيحة من الصعب تفاديها، لكنها أعرضت عن التفكير في هذا الهاجس واستكملت التصوير كما هي. وفي غضون سنوات قلائل بالفعل بلغت شهرة مونرو الآفاق، ووصل أحد الصحفيين إلى الصور، فأنكر الاستوديو التصوير، لكن مونرو هي من أصرَّت على الإقرار بها. ظهرت الصور للعامة بالفعل وتناولتها الصحف بصفتها "فضيحة"، لكن مونرو واجهت الجمهور بالفعل بهذه الصور، فلمَ تسبب فضيحة للجمهور وهي ممثلة إغرائية وأيقونة جنسية Sex Symbol في المقام الأول؟

على نقيض الفضائح، ساهمت هذه الصور في زيادة رصيد مونرو من الشهرة والإعجاب، وتصاعدت شهرتها بشكل

صاروخي منذ انتشار هذه الصور، الأمر الذي أُعجَبت به مونرو. لم تكن تخجل قط، ولم يعرف الحياء طريقًا إلى قلبها. في إحدى اللقاءات الصحفية اعترفت مونرو: "أنا مارست الجنس مع منتجين من أجل أن أحصل على المال والشهرة. سأكون كاذبة إن قلت خلاف ذلك".

في المرة الوحيدة تقريبًا التي ذكرت فيها مونرو ما ستربي عليه ابنتها، ظهرت جلية نفسيتها تجاه معاني الحب والمودة في هذا العالم، وقالت: "سأعلمها بلا أكاذيب، لا أكاذيب عن وجود كائن السانتا كلوز، لا أكاذيب عن أن العالم مليء بأناس محترمين وشرفاء وأنهم جميعًا حريصون أن يساعدوا ويحسنوا إلى بعضهم بعضًا. سأخبرها بأن هناك وفاءً وطيبة في هذا العالم بقدر ما يوجد فيه من ماسٍ وراديوم". إن مساحة المشاعر عند مونرو متبلدة تمامًا، يكاد يكون قلبها فارغًا من أي شعور إيجابي تجاه الوجود والحياة والناس.

كانت مونرو تنظر بهذه العين المقيتة إلى العالم، العالم المليء بالأكاذيب والخداع والغدر، في الحفلات التي كان يحضرها أشهر نجوم هوليوود كانت تقلب عينيها بين الحضور

وتؤكد أن هذه الحفلات ما هي إلا أوقات مملة للجميع لكنهم ينهمكون فيها للإحساس بنشوة تصدر أسمائهم في صحف اليوم التالي وهم بجانب الممثل فلان والممثلة فلانة.

وكما أوضحنا في الاقتباس الذي أوردناه في بداية الفصل؛ لم ترَ مونرو من هوليوود إلا الفقر والنفاق، تقول في كتابها (قصتي) الذي يتناول سيرة حياتها: "عندما بدأت العمل كموديل، كان لا بد أن أبيع جسدي، لا لمجرد صور فحسب، أحيانًا لعلاقة جنسية كاملة مع رجال، إن هذا أمر يسري في المهنة بالطبيعة، ولو لم توافق الفتاة على النوم مع منتج ما، فإن هناك 25 فتاة أخرى ستفعل".

قررت مونرو أن تسلك طريق العهر من أجل الوصول، وبجانب ذلك لم يكن هناك من يدعم مونرو نفسيًّا، ويواسيها عند المصائب، ويرشدها إلى الصواب والخطأ، ويعلمها كيف تتعامل مع الناس والدنيا، هي تقول بنفسها إنها لم تكن تملك أصدقاءً ولا عائلة، ولا تزور أحدًا إلا نادرًا ما لم تكن زيارة عمل، تمضي وقت فراغها في التقوقع حول نفسها، أو في التدريب على التمثيل.

وغني عن القول إنها لم تهتم يومًا بالشأن العام، لا تعرف عن السياسة سوى إبراهيم لينكولن، لا لأنه صاحب مبادئ ومثل عليا، وإنما لمجرد أنه كان يشبهها في الطفولة. لم تشارك في العمل الخيري أو الإصلاح الاجتماعي والسياسي، لم تكن ناشطة في أي شيء ولم تستثمر في أي شيء سوى جسدها ومفاتنها.

ومن المفارقات التي اندهشتُ شخصيًّا عندما اطلعتُ عليها هو أن مونرو ظفرت بإعجاب الجميع، بوسترات تحمل صورها كانت تعلَّق في كل مكان في الولايات المتحدة، في الحانات والمحلات، في محطات البيوت، على أبواب السيارات والمنازل وغرف النوم. لكنها لم تعجَب بنفسها قط. كتابها (قصتي) الذي تحكي فيه سيرة حياتها، مليء بالبؤس والمواقف المخزية والمشاعر السلبية. قلما تجد فيه عبارة إيجابية واحدة عن الحياة أو عنها شخصيًّا أو عن أي إنسان في الدنيا.

سجلت مونرو كتابها كفصول، كل فصل يتناول حادثة بائسة، أو طفولة مشردة، أو ذكرى مؤلمة، وحتى في أسعد اللحظات وأكثرها بهجة مثل الحفلات واللقاءات الزوجية

الحميمية، لا تجدها تنتبه إلا للتفاصيل المقلقة والمستقبل المظلم، أو الماضي البئيس، كيف يمكن لإنسانة محاطة بعالم كامل من الإيجابيات والشهرة والنجاح ألا ترى إلا التفاصيل السيئة الجالبة للتعاسة؟ إن هذا الحطام النفسي كفيل بجلب التعاسة إلى كل شيء وإضفاء طابع سلبي على كل شعور!

وظني أن هذا جانب من شخصية مونرو ظل بداخلها لم يفارقها، والدليل أنها في أواخر حياتها عانت من القلق Anxiety ومن الأرق كاضطرابات مزمنة، وكانت تتعاطى المهدئات والخمر من أجل تخفيف آثارهما، حتى قررت الانتحار في غرفتها في أغسطس 1962م بتعاطي جرعة زائدة من مخدراتها.

قبل انتحارها بثلاثة أشهر، أحيت مونرو حفلًا بمناسبة عيد ميلاد الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي، صعدت مونرو على المسرح وغنت له أغنية Happy Birthday to You، وعلى الفور افتتن الرئيس بها وبفستانها الذهبي اللامع، ولم يستطع أن يخفي إعجابه بها حين صرَّح في خطابه في ذاك اليوم: "أستطيع الآن أن أتقاعد من السياسة بعد أن غنت

لي عيد ميلاد سعيد بهذه الطريقة الحلوة الرائعة". تدور الأحاديث حول علاقة غير شرعية جمعت مونرو بالرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي، وحملت سِفاحًا بطفل لم يدرِ أحدٌ هل والده هو جون كينيدي أم شقيقه روبرت كينيدي، فقد كانت على علاقة غرامية مع كليهما.

بعد انتحار مونرو، يقال إن لوس أنجلوس سجلت أرقامًا قياسية من معدلات الانتحار، وتضاعفت حالات الانتحار في نيويورك هذا الشهر. لم يستطيعوا أن يستوعبوا الحياة دون مونرو. إذا كانت هذه المرأة الفاتنة صاحبة الجاذبية الساحرة، والتي يتمناها أي رجل على الأرض، قد أشرفت على الانتحار، فبأي منطق يعيش البائسون وهم لا يملكون عشر معشار ما تملك مونرو من سعادة ورفاهية وعلاقات ونجاحات؟ هكذا ظنوا، تقريبًا.

وعلى الرغم من أن مارلين مونرو لم تكتب بنفسها رسالة انتحار، فإن ما دفعني لتخصيص فصل حولها هو أن إحدى الفتيات اللاتي انتحرن بعد انتحار مونرو سجلت بخط يدها

رسالة لانتحارها في مدينة نيويورك: **"كيف الحياة دون مونرو؟"**.

هذه الرسالة تكشف جانبًا مهمًّا في أثر الصورة الإعلامية في النفوس، إذ إن الصورة الزائفة التي كانت مونرو تحرص على إظهارها للناس، بكونها فتاة منفتحة للحياة وظريفة ويسعد الإنسان بقضاء الوقت معها، أثرت في ملايين الناس إلى درجة التعلق المقدس بها، إلى حد أن غياب مونرو كان بمثابة إعلان نهاية العالم بالنسبة إلى البعض. فبالنهاية إذا كانت هذه الفتاة المرحة والرمز المبجل قررت الانتحار فكيف بنا نحن البائسين؟!

لقد عانت مونرو اعتداءً جنسيًّا وهي صغيرة، وكلما تذكرت الحادثة كانت تصاب بالتلعثم، في إحدى المقابلات عندما بدأت تروي للصحفي حادثة الاعتداء عليها بدأت في التلعثم. تقطعت أواصرها مع كل أصدقائها وعائلتها ولم يكن لها أحد في الحياة، لا زوج ولا أولاد ولا أهل ولا شيء. مرت بتجربة زواج فاشلة، ثم بتجربة أفشل منها، إذ وقعت في حب رجل متزوج، ثم تسابق ذوو النفوذ في سبيل الحصول على علاقة

زواج، منهم: الرئيس جون كينيدي، لاعب البيسبول المرموق جوا ديماجيو، المؤلف ذائع الصيت آرثر ميلر، لم تستمر أي علاقة.

كانت تبيع جسدها وتزني من أجل الوصول لما تريده. دينيًّا لم تكن مونرو ملتزمة بشيء، ولا علاقة لها بالدين من قريب أو من بعيد. كلما جال خاطرها مع نفسها شعرت وكأنها تعيش حياة خالية من القيمة.

تزوجت مونرو مرتين -بعد زواجها الأول بعمر 16 عامًا والذي دام أربع سنوات- الأولى لجو ديماجيو عام 1954م، ولاح أمامها فرصة لاستعادة العاطفة وروح الألفة التي افتقدتها في طفولتها، وطلب منها زوجها الذي كان يحبها بعنف أن تتخلى عن التمثيل أو على الأقل عن المشاهد الإغرائية. لم تستمع مونرو له، واشتكى زوجها مرارًا من أنانيتها وعدم سماعها للطرف الآخر.

في خضم عدم رضا مونرو عن زواجها، وجدت السلوى في مدربها الصوتي هال شيفر، وارتمت في أحضانه لتقيم علاقة معه، صرحت مونرو بحبها لشيفر، لكنه يسترجع

هذه اللحظات ويحكي: ”لم أكن متأكدًا إن كانت مونرو تفهم معنى الحب أساسًا. أعتقد أن علاقتنا مثَّلت هروبًا من زواجها المتهالك لا أكثر“.

اكتشف زوجها العلاقة، وثار ثورة عارمة عليها، لكن الحادثة مرت بشكل أو بآخر تحت اتفاق غير معلَن أن الأمور انتهت إلى غير رجعة. وفي أوائل عام 1955م وصل الشجار بين الزوجين إلى ذروته عندما صورت مونرو مشهدًا خليعًا بإحدى أفلامها، لترجع إلى زوجها الذي يصب جام غضبه عليها وتُصاب بكدمات في كتفها من أثر ضرب زوجها لها. انتهى الأمر بالطلاق.

ذهبت مونرو بعد الطلاق مباشرة إلى صديقها فرانك سيناترا، وأقامت علاقة غرامية معه، ثم بعد سنوات تزوجت آرثر ميلر، طلقها زوجها وذهبت هي لتفوز بحب عشيقها ميلر، لكنها تطلقت منه كذلك بعد خمس سنوات فقط (1956-1961) ولم يظهر ميلر حتى في جنازتها.

وبعيدًا عن الزواج الرسمي، وقعت مونرو في عدد لا يحصى من العلاقات الحرام، أكثر من 20 رجلًا اعترف أو نُقل

عنه إقامة علاقة مع مونرو، كما أنها حملت مرتين من السِّفاح وباشرت بإجهاض جنينها في المرتين دون تردد، وفي المرة الأخيرة عام 1958م، تلقت مونرو الأنباء الحزينة: بسبب عملية الإجهاض لن تتمكن مونرو من الحمل مرة أخرى، وسلبت نفسها حلم الأمومة. عقب كل هذه الإخفاقات غرقت مونرو في الكحوليات والمخدرات، وصار سلوكها شائنًا مع الجميع، أحد أصدقائها كان يصطحبها على يخت لمَّا أسرفت في الشرب، وقال غاضبًا: "أقسم أني مستعد لأن أقذفها إلى البحر من هذا اليخت اللعين!".

هذه العلاقات الزوجية والعاطفية المشوهة التي ورطت مونرو نفسها فيها هدَّمت لديها أي محاولة لبناء علاقات عاطفية سليمة، وذكرت ذلك بنفسها في بداية زواجها الأخير، حيث قالت إنها "تخاف جدًّا من فكرة الزواج"، لأنها "تعلمت من الحياة أن المرء لا يمكنه أن يحب إنسانًا آخر".

في أواخر أيام حياتها تدهورت حالتها الذهنية والنفسية، وأحيلت قبل وفاتها بعام واحد فقط، عقب انفصالها عن زوجها الأخير آرثر ميلر، إلى مصحة نفسية بسبب تشخيصها باضطراب الشيزوفرانيا، كأمها من قبل. أُجبِرت مونرو على

السكن هناك لكنها لم تستطع تحمل الجلوس فيه وشعرت بأنها "في سجن مع مجموعة من المختلين لجريمة لم أرتكبها"، وبدا من الواضح أنها تعاني ميولًا انتحارية، حيث أفصحت عن تفكيرها في هذا الأمر في إحدى رسائلها للمخرج لي ستراسبرج عندما قالت: "ما زلت ضائعة. لا أستطيع جمع شتات نفسي. سمعتك مرة تتحدث عن الممثلين وانتحارهم وأن الحاجز بينهما هو التركيز. أعتقد أني أصاب بالجنون".

ومن المفارقات أنه لم يكن ثمَّة أحدٌ ليساعد مونرو، على الرغم من شعبيتها الجماهيرية الهائلة، سوى زوجها السابق الذي طلقته قبل ست سنوات كاملة، جو ديمارجيو.

بعدما خرجت مونرو من المصحة، وقبل وفاتها بأشهر معدودة، أجرت "فوتوسيشن" مع أحد المصورين، في عز اكتئابها وإدمانها وتفكك حياتها العاطفية والاجتماعية، وخرجت الصور بأحسن ما يكون، بهية، مغرية، فاتنة. بدا هذا الأمر غريبًا، إذ كيف يسيطر الاكتئاب على حياة مونرو وتكثر من تعاطي المخدرات والكحوليات ثم تبدي هذه البهجة العارمة أمام الشاشة؟ يقدم لنا الصحفي جون راندي الإجابة ببساطة: "كأن مونرو لم تجد معنى الحياة إلا أمام الكاميرا".

إن حياة مونرو أمام الكاميرا كانت ”صورة“ صماء لجسد سطحي يرتزق عبر تسليع مفاتنه لا أكثر، أما الروح فممزقة، والحالة النفسية مشوهة، والعلاقات متفككة.

فكم كان عمر مونرو حين انتحرت؟

36 عامًا فقط!

في النهاية يبدو أن فلاشات الأضواء الصناعية المسلطة عليك، والجمهور الذي يلقي عليك الزهور عند دخولك لقاعة السينما، والصحفيون الذين يتسابقون من أجل نيل حظوة نقل تصريح واحد منك، والفرق الموسيقية التي تصطف من أجل حيازة شرف العزف على وقع صوتك، واستغراقك في الأهواء والملذات والمسكرات والرفاهيات مع غض طرفك عن القيم الدينية والمعاني الروحية اللازمة للحياة السوية...

يبدو أن كل هذه الأمور لن تشفع لك كما لم تشفع لمونرو من قبل، ولم تطق أن تعيش حياتها، أو شبه حياتها، ما وراء الكاميرا، لتعطي لنا درسًا أن الحياة أسمى من الجسد، وأن الجسد وحده غير كافٍ، وأن الماديات مهما تعاظمت فإن ثمة أمورًا لا يمكن أبدًا العيش دونها.

5

"

"حياتي لم تعد تُطاق"

داليدا (1933-1987)

فنانة ومغنية إيطالية مصرية

"

"الحياة لم تعد متحمَّلة بالنسبة إليَّ. سامحوني"

سلمى يا سلامة... رحنا وجينا بالسلامة.

اعتدنا في طفولتنا ونحن على عتبة الأوتوبيس الذي سيحملنا إلى رحلتنا المدرسية أو إلى حديقة النزهة أو حديقة الحيوان، أن نغني في ختام رحلتنا: "سلمى يا سلامة" ودونها كانت الرحلة ستبدو ناقصة، فلهذه الأغنية تحديدًا مذاق خاص يضيف إلى جو الرحلة طابعًا من الدفء نعود فيه إلى أمان البيت بعد إرهاق اليوم المليء بالحركة والترفيه والنشاط.

لم أتساءل يومًا عن أصل الأغنية، وكيف أدت داليدا هذه الأغنية أواخر السبعينيات واستقرت في وجداننا بصوتها المألوف على مسامعنا كلما طرقت كلمات الأغنية أبواب آذاننا.

يعود أصل أغنية سلمى يا سلامة إلى بديع خيري كمؤلف وسيد درويش الذي لحنها عام 1919م، ثم أعادت داليدا إحياء الأغنية عام 1977م وحققت نجاحًا باهرًا، باعت من ذلك

الألبوم وحده 2 مليون نسخة. لكن أضواء البهجة التي تشرق بها الأغنية في رحلات الأطفال غاب شعاعها عن حياة داليدا الشخصية.

وُلدت داليدا –واسمها الحقيقي: يولاندا كريستينا جيجيليوتي- عام 1933م بحي شبرا بالقاهرة لأبوين إيطاليين، الأب كبير عازفي الفيولين في أوبرا القاهرة، والأم خياطة. كانت مصر حينذاك مقصدًا من مقاصد المقيمين الأجانب، وفي سنواتها الأولى أُصيبت داليدا بمرض في عينيها، خاضت بسببه عمليتين انتهت إحداهما بخطأ أدى إلى إصابتها بالحَول، وعدم قدرتها على المكوث لوقت طويل في الظلام. ستظل بقية عمرها تنام وهي موقدة نورًا خافتًا بجانب سريرها.

كانت بنيتها الجسمانية الطويلة ووزنها الزائد بالإضافة إلى نظارتها المتضخمة المستندة بالكاد على أنفها محط سخرية من زملائها في المدرسة، تمردت داليدا على هذا المنظر وتخلت عن النظارة ووضعت عصابة على عينها المصابة لتعالج الحول وظلت تمشي بالساعات كل يوم، لتتحول إلى فتاة مرغوبة

تستولي على أنظار المراهقين. وفي عام 1951م، وهي بنت 18 عامًا، شاركت في مسابقة للجمال وفازت بالمركز الثاني. عقب فوزها انتشر في المجلات صورتها في وضع إغرائي مرتدية فقط ملابس بالكاد تستر شيئًا من جسمها، فانفسخت خطبتها من جارها، لكنها لم تأبه لذلك، حيث إن داليدا فضَّلت حياة الكاميرات والأضواء والإغراء على حياة الهدوء والسكون والاستقرار. سيكون لهذا القرار أثر ضخم فيما بعد.

عملت داليدا منذ ذلك الوقت كموديل، لكنها بدأت مشوارها المهني في الفن والغناء عام 1954م عندما تُوجت داليدا على عرش ملكة جمال مصر، المسابقة التي كانت تتهافت إليها الفتيات لا للتباهي بجمالهن والزهو بمفاتنهن فحسب، وإنما للفرص الفنية الهائلة التي تعود من وراء الظفر بذاك المنصب ذي المنافسة الشرسة والعلاقات النافذة.

وبالفعل فتح اللقب الباب أمام داليدا على مصراعيه لعلاقات مهنية وإعلامية من مستوى مرموق، فقد راسلها العديد من المنتجين والمخرجين ليطلبوها للعمل الغنائي والتمثيلي، لكنها فضلت العمل في أوروبا، وبعد وقت محدود سجلت

داليدا أولى أغانيها، أغنية مثل Bambino باعت 300,000 ألف نسخة في سنة واحدة فقط، تصاعدت شهرتها بسرعة الصاروخ.

بحلول منتصف الستينيات، باعت داليدا 10 مليون نسخة من أغانيها، مثلت حفلاتها الغنائية عروضًا متميزة للغاية، باعت 80 مليون ألبومًا في حياتها، حازت منصب السيدة الثانية في فرنسا بعد زوجة الرئيس، زخرت الحياة المهنية والفنية لداليدا بإنجازات الواحد منها كفيل بتحقيق حلم ملايين الفتيات. فبادئ ذي بدء تربعت داليدا على عرش ملكة جمال مصر، واستقلت بحياتها خارج مصر وعاشت في أحد أكثر الدول الأوروبية تقدمًا[1]، وضمنت لنفسها بيتًا واسعًا وقدرة على التربح المالي أينما ذهبت.

---

(1) نقصد بالتقدم هنا التقدم المادي والتقني لا أكثر، وإلا فإن فرنسا هي من أكثر الدول الاستعمارية وحشية التي تفننت في قتل مواطني البلاد التي احتلتها، إلى درجة أنها أجرت تجارب للقنابل النووية على مواطني الجزائر، وفي لفتة غريبة قامت بإرجاع "جماجم" المجاهدين الجزائريين إلى دولتهم الأم، وذلك قبل شهور من كتابة هذا الكتاب، أي إنها كانت تحتفظ بسجل جرائمها لا عبر مدونات الدفاتر فحسب وإنما عبر جماجم من قاوموها توثيقًا لهذا السجل الحافل بالإجرام والدموية!

وهب الله داليدا صوتًا رائعًا خلابًا، استطاعت أن تستثمره لصالح نفسها فتعاظمت شهرتها وأحيت حفلات غنائية في أكثر من عشرين دولة وغنت بقرابة عشر لغات، وحازت العديد من المنح والجوائز الدولية التي لم يسبق لأحد أن جمع مثلها من قبل. كرمها شارل ديجول بنفسه وأعطاها ميدالية رئيس الجمهورية. لقد كانت متفوقة في الثلاثينيات من عمرها إلى حد يجعل المطربة مادونا -وأي ممثلة في هوليوود- غيورة منها.

إن كل هذا النجاح الذي يذهل الألباب ينصب نفسه بكل ثقة أمام كل فتاة تسعى وراء تحقيق حلمها ومطاردة شغفها، فما الذي تريده فتاة في سوق العمل أكثر من أن تعمل ما تحب وفي نفس الوقت تنال مقابل ذلك أجرًا عاليًا يضمن لها الأمان المادي جنبًا إلى جنب مع المتعة الشخصية وإمتاع الناس والعيش في أجواء السفر والاشتهار والتصدر؟

ترى ما الذي أدى بداليدا إلى وأد كل هذا النجاح تحت ركام الموت الصامت؟

ومن أين استحضرت الشجاعة لإنهاء مسيرتها الفنية بهذا الشكل المأساوي المفاجئ؟

الحقيقة إنها لم تكن شجاعة وإنما خوف... خوف مستمر وقلق وجودي دائم لم ينقطع يومًا في حياتها المهنية.

فظاهر داليدا كان النجاح، والتفوق، والجمال، لكن باطنها كان محطمًا عامرًا بالخراب.

فعلى المستوى العاطفي عانت داليدا من أربع تجارب حب كل واحدة منهن كانت أفشل من أختها. ظلت تبحث داليدا عن الاستقرار والأمان بعيدًا عن ضوضاء الجمهور وصخب الكاميرات، لكنها قد قررت حياتها بنفسها منذ بداية الطريق، منذ فضَّلت صور المجلات ومسابقة الجمال على الحياة الأسرية التقليدية.

في البداية تعرفت داليدا عام 1956م على لوسين موريس، المنتج الفرنسي الذي سيوفر لها العديد من الفرص الغنائية، وتوثقت رابطتهما عام 1961م بزواج رسمي لاح في الأفق أنه سيكون بيت الاستقرار والسكينة والهدوء، لكن سرعان ما شعرت داليدا بالضجر من الحياة الزوجية الرتيبة، ووقعت في

حب رسام آخر يدعى جاس سوبيسكي وخانت زوجها معه، لم يتحمل الزوج خيانة زوجته، فانتهى أمرهما بالطلاق بعد أشهر قليلة من الزواج، وسرعان ما بدأت داليدا فصلًا جديدًا مع عشيقها الفنان، لكن سنة واحدة كانت كفيلة بإنهاء جرعة اللذة، وانفصل الطرفان عن بعضهما ولم تستكمل حياتها مع سوبيسكي. لقد خسرت زوجها وعشيقها في آنٍ واحد.

قررت داليدا بعد هاتين التجربتين غير الناجحتين أن تعتزل الزواج، اعترتها حالة من اليأس، لكنها صادفت من عوَّضها عن الحب الفاتر في بيتها القديم وآمنت أنها ستقتنص من ذاك الشاب ما فقدته أمام الكاميرات. فقد قابلت لويجي توينكو عام 1967م، حيث شارك معها في أغنية بمهرجان سانريمو الموسيقي بإيطاليا، ووقعت في حبه على الفور. تناولت الصحف قصة حبهما المجنونة، وترقب الحبيبان معًا صعودهما نحو منصة التتويج في إحدى المسابقات، لكن ما لبثت أحلامهما أن تحطمت بمعول هيئة التحكيم، فقد فشلت الأغنية في الوصول إلى المنافسة النهائية بسبب أداء توينكو الضعيف عقب استهلاكه لزجاجة خمر كاملة قبل العرض.

وعقب إعلان النتائج، لم يتحمل كبرياء تينكو تحمل الخسارة، فانتحر في يناير 1967م.

لم تنتهِ تراجيديا قصة الحب هكذا فحسب، فداليدا هي من اكتشفت جثة محبوبها وخطيبها، دخلت داليدا غرفة خطيبها لتجده مستلقيًا مسندًا وجهه على الأرض وبجانبه زجاجة من الخمر، غضبت داليدا وأسرعت نحو رقبته وشدته من شعره لتستفيقه، لتفاجأ بأن يديها تلطخت بالدماء جراء الثقب القابع في منتصف رأسه أثرًا للرصاصة، وبجانبه رسالة كتبها بخط يده تؤكد أنه انتحر لأنه "وهب حياته للجمهور الإيطالي" ثم خانه الجمهور باختيار أغاني رديئة عوضًا عن أغنيته.

ألقت داليدا النظر حولها فإذا جسد خطيبها كله مضرج في دمائه، فانهارت على الأرضية الباردة وظلت تصرخ في هيستيريا متواصلة، ثم استفاقت وأبلغت الشرطة، وبعد جلاء المشهد رجعت إلى بيتها في باريس مفطورة القلب والعقل معًا، فدخلت في موجة اكتئاب حادة، شرعت بسببها في تعاطي جرعة زائدة من دوائها في مقر إقامتها بباريس بعد شهر واحد فقط من انتحار خطيبها السابق.

أمضت داليدا عدة أشهر للتعافي، وغاصت في رحلة استكشافية لمعنى الحياة، أو بالأدق فقد غاصت في متاهة لم تخرج منها طيلة حياتها، فقدت صوتها وظلت في غيبوبة لأيام متصلة، خرجت كلمات أغنية داليدا في تلك الفترة تصف أزمتها الوجودية، في أغنية I've decided to live التي غنتها بعد عودتها للغناء. تقول: (بعد صمت طويل، بيني وبين العدم، بعدما أغرقت نفسي في حياة بلا معنى... العيش في أحلامي لم يكن كافيًا، صليت لله واستجاب لي... قررت أعيش وأشكر الله). وفي أغنية Alone more than Ever تقول: (وحيدة أكثر من أي وقت مضى، دون ذكريات، لا أستطيع أن أجد الماضي خاصتي، ماضي لن يعود أبدًا). وفي أغنية Mamy Blue تقول: (إلى مصيري سأتجه، لا أعلم طريقي).

ولاحقًا صرحت داليدا في حوار مُتَلْفَز مشهور لها عن حادثة انتحارها أنها كانت في حالة معاناة لا مفر منها، وبعدما استفاقت من الغيبوبة بدأت بقراءة كتب فلسفة الشرق الأقصى ودراسة الديانات، ولم تطمئن سوى لكتاب لعالم النفس النمساوي سيجموند فرويد، الذي رسم لها طريق الخلاص عبر التحليل النفسي. حاولت أن أبحث عن إجابة عن

سؤال لماذا لم تتجه داليدا للدين؟ لكن الجواب كان سهلًا: إن حياة داليدا لم تكن تتسع للدين، لم ترد داليدا تحمل تبعات هذا القرار بالتدين، فلجأت إلى حل أخف وطأة وأقل تغييرًا على نمط حياتها وهو التحليل النفسي.

ويسترجع جيف بارنيل، الصحفي والموسيقار الفرنسي الذي صاحب داليدا في سنواتها العشرة الأخيرة وكتب لها كلمات أغنياتها التي سحرت بها جمهورها، ذكرياته معها وحكايتها لتلك الفترة من حياتها، ويؤكد أن المطربة عانت قلقًا داخليًّا عارمًا، لقد كانت تطرح على نفسها أسئلة ميتافيزيقية دون أن تجد جوابًا لها. كانت تتساءل عن سر الحياة والموت، ومن أين جئنا وإلى أين المصير. لقد دخلت في أزمة وجودية لم تستطع منها فكاكًا.

في ذلك الوقت المأزوم نفسيًّا، ارتبطت داليدا بأرنو ديجاردي، المخرج والمرشد الروحي الفرنسي، الذي يلقن مريديه -ومشاهديه- مزيجًا من الديانات الشرقية والتحليل النفسي. سافرت داليدا معه إلى الهند ونيبال والتبت للتعرف على الهندوسية والبوذية بشكل أقرب، وهي الديانات أو

الفلسفات التي تغطي الجانب الروحي دون الجانب التشريعي، أي إنها لن تغير من حياة داليدا في شيء. وجدت داليدا في ديجاردي مثالًا للإنسان الحكيم، ووجدت فيه الأمل. انبهرت داليدا به إلى حد أنها خرجت في لقاء تليفزيوني بتصفيفة شعر جديدة، وملابس واسعة، وتقليل من الظهور الإعلامي تبدو كأنها دخلت في رحلة "للبحث عن الحقيقة" معه.

لكن تقع داليدا في غرام معلمها الروحي، وتتلقى على يديه الهندوسية أو البوذية أو كليهما، لكن بعد أشهر قليلة تعيد داليدا التفكير، ترى هل أنا على استعداد للتضحية بمشواري المهني الناجح من أجل العيش في ظل رجل ما؟ قررت داليدا الانفصال والانفكاك عن التجربة ككل.

ولم يكد يمر عام 1967م حتى وقعت داليدا في حب طالب إيطالي، لوسيو ذو الـ 18 عامًا، وقع بينهما الغرام، وحملت داليدا في جنين ببطنها. حين اكتشفت داليدا حملها ثارت وفارت بدلًا من أن تفرح بهذه الهبة الإلهية، ولم ترضَ أن تصبح أمًّا في تلك السن لتنهي مشوارها الغنائي وتتفرغ لتربية ولدها. فلجأت إلى الحل الفوري: الإجهاض. تمامًا كما

ضحت بجيرانها ومجتمعها من أجل شهرتها، ضحت داليدا بولدها من أجل نفس الغرض الذاتي.

لكن داليدا لم تدرِ أنها إذا ألقت حتف طفلها الذي يترعرع بين أحشائها، فإنها في ذات الوقت تكتب على نفسها عقابًا أبديًّا، فقد تسببت عملية الإجهاض في خطأ طبي أدى إلى مشكلة في رحم داليدا، مما تسبب في العقم، وفقدت داليدا إمكانية الحمل إلى الأبد، وتلاشت أمامها فرصة الأمومة الدافئة وتبخر أمام ناظريها حلم العناق الحنون لولدها.

وجدير بالذكر أن داليدا غنت أغنية (لقد صار للتو 18 عامًا) لتصف مأساتها مع ذلك الشاب، حين كان عمرها ضعف سنين عمره.

على أي حال، ارتبطت داليدا بريتشارد تشانفراي عام 1972م، التقت به على نحو غريب حيث قابلها وهو يرتدي عباءة سوداء وقميصًا أبيض مهلهلًا، على شاكلة مصاصي الدماء. انتابت داليدا لحظات من الاندهاش عندما فتحت الباب لهذا الشخص الغريب، لقد كان يدعي أن روحه هي روح دوق

سان جيرمان في القرن الثامن عشر الميلادي، وزعم أنه يملك خلطة سحرية من 17,000 سنة تحول الرصاص إلى ذهب.

على أي حال ودون سابقة معرفة، انجذبت داليدا إلى هذا الرجل، وارتبطا رسميًّا ونالا قسطًا من الشهرة الإعلامية وزادت تصرفات عشيقها العجيبة رصيدها الإعلامي شهرة فوق شهرة. ثم شاءت الظروف أن ينفصلا بسبب حادثة جريمة وقع فيها الطرفان صدفة عام 1976م وأطلق فيها تشانفراي -وهو بصحبة داليدا- النار على عشيق خادمته زاعمًا أنه كان لصًّا بمنزله، أخذت الحادثة نصيبها من التناول الإعلامي في قسم "فضائح المشاهير"، وبحلول عام 1981م لم يتحمل الطرفان الإزعاج المتوالي وقررا الانفصال.

ومرة أخرى تعود لعنة الانتحار إلى حياة داليدا، فيقتل تشانفراي نفسه عام 1983م عبر خنق نفسه بالدخان الصاعد من عادم سيارته.

لجأت داليدا مرة أخرى إلى العلاج النفسي. حاولت التشبث بأي علاقة صحية في حياتها، انجذبت عاطفيًّا إلى طبيبها المعالج فرانسوا نودي، وفي أحد الأيام وعدها بزيارة منزلية

لتلقي العلاج كما ينبغي، لم تتحمل داليدا غيابه في هذا اليوم، وبحسب أورلاندو شقيق داليدا: "كانت علاقة الحب تلك هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير"، فشربت داليدا جرعة من الحبوب المخدرة مع كوب من الويسكي، أديا إلى وفاتها على الفور.

مايك براندت، صديقها الوفي الذي شاركها في عملها الغنائي والفني، انتحر، ألقى بنفسه من نافذة منزله عام 1975م.

وأشرفت داليدا عام 1967م على الانتحار، وجرحت نفسها بالفعل، استطاع من حولها أن ينقذوها، ودخلت على إثر هذه التجربة المستشفى لتلقي العلاج الذهني المناسب... خرجت داليدا من المشفى لكن يبدو أن روحها لم تخرج من هذه التجربة قط.

تركت داليدا رسالة بسيطة بجانب جثتها: **(الحياة لم تعد تطاق. سامحوني).**

لم تقصد داليدا حياة الأضواء، حياة الشهرة، إن كل هذا قناع يخبئ الحياة الحقيقية لداليدا. فالحياة الشخصية والأسرية، الحياة الروحية والعاطفية، دينيًّا، عاطفيًّا، أسريًّا...

لكن رد الفعل:

خانت زوجها. أشاعت السفور. حملت من السِّفاح وقتلت جنينها بيديها ثم أصيبت بالعقم. أقدمت على الانتحار ولم تتعظ ولجأت إلى ونبذت الدين وراء ظهرها ولم تكلف نفسها عناء التعبد لرب العالمين سبحانه.

كانت داليدا محقة في رسالة انتحارها. الحياة لم تعد تطاق. تقريبًا جميع إخفاقات داليدا نابعة من قرارتها الشخصية، لكنها لم تتحمل حياة خالية من الأسرة والولد والحب والمعنى. من ذا الذي يطيق حياة بمثل هذا الخواء القيمي والتيه الوجودي؟

حصدت داليدا أكثر من 70 أسطوانة ذهبية، وأسطوانة بلاتينية صممت خصيصى لها كونها أول من تجاوز مبيعات ألبوماته 10 مليون نسخة.

6

"لا أرى متعة

في الحياة إطلاقًا"

كيفن كارتر (1960-1994)

مصور صحفي

حاز جائزة بوليتزر

"أعتذر، ولكن ألم الحياة يفوق متعتها لدرجة أني لا أرى متعة في الحياة مطلقًا... مكتئب، بلا هاتف، مال للإيجار، مال للعائلة، مال للديون... المال! أنا مطارَد بذكريات حيَّة للقتل والجثث والغضب والألم، أطفال جائعون ومتألمون... مجانين يعشقون القتل، أغلبهم من الشرطة، والجلادين".

وُلد كيفن كارتر لأبوين كاثوليكيين في جوهانسبرغ بدولة جنوب إفريقيا في ظل حكم نظام الفصل العنصري -الأبارتيد- فيها الذي كان يفرق تفرقة شديدة بين سكان البلد الأصليين وبين المحتلين الأوروبيين. شهد كارتر منذ صغره، كونه أبيض البشرة، الكم المهول من المظالم التي كان يتعرض لها الأفارقة من قِبل المحتلين الفرنسيين قاوم كارتر قدر وسعه ضد المظالم، شهد في إحدى المرات نادلًا يتعرض للتنمر العنصري من قبل جنود بيض، فدافع عن كرامة النادل فما لبث إلا أن أُهينَت كرامته هو الآخر وطفق الجنود ينهالون عليه بالضرب.

بدأ كيفن في دراسة الصيدلة لكنه لم يفلح فيها، فتم تجنيده إجباريًّا، فحاول التهرب من خدمته العسكرية لأنها كانت ستستهلك أربع سنوات من عمره في قضية لا يؤمن بها،

تنكَّر تحت اسم ديفيد لكنه لم يستطع فتح حساب بنكي ومن ثم تعطلت حياته، ففشلت محاولته للهروب وأكمل خدمته العسكرية، في هذه الفترة يقول عن نفسه: "الانتحار صار خيارًا متاحًا، بدأت في التفكير فيه بشكل متزايد وكلما فكرت فيه زاد إغراءً بالنسبة إلي. اشتريت عقاقير مخدرة، بل إني اشتريت سمًّا للفئران، اضطجعت على سريري وانتظرت الموت. لم أكن أؤمن بالجنة ولا بالنار. ليس هناك حساب".

كانت محاولة الانتحار هذه عام 1980م، وبعد فشلها سعى كيفن إلى لملمة شتات حياته المتبعثرة وقرر استكمال الخدمة، وبعد إنهائها اتجه للعمل في مسار التصوير الفوتوغرافي. عمل على تصوير حادثة الحرق العلني المسماة بـ Necklacing والتي كانت تستخدمه الشرطة الجنوب إفريقية في حق الأفارقة، حيث كان الضحية التي التقط كيفين الصور لها هو "ماكي سكوزانا" وتم الحكم عليه بالموت حرقًا عبر وضع إطار سيارة في رقبته وإشعال النيران فيها لتلتهم وجهه وبقية جسده قطعة قطعة، وكان السبب في ذلك الحكم الوحشي هو اتهام ماكي بأنه أقام علاقة غير شرعية مع زوجة ضابط شرطة، وبالتأكيد كان شرطيًّا أبيض ذا نفوذ وسُلطة.

أصبحت قضية كيفن هي تصوير المعاناة التي يذوق الأفارقة منها أصنافًا شتى وتقديمها للعالم، وبرع في مجاله لكن كان عام 1993م ذروة تفوقه، فقد سافر كيفن في هذه السنة إلى السودان، والتقط صورة لطفل صغير ذي جسد هزيل للغاية ينحني على الأرض ويزحف نحو مركز لتوزيع الطعام تابع للأمم المتحدة، شاهد كيفن الطفل يتوقف عن الزحف ليلتقط أنفاسه وبينما هو رابض منكفئ على نفسه من شدة الإعياء والإرهاق إذ هبط نسر ضخم ووقف بجوار الطفل محدقًا إليه ببصر حادٍّ في انتظار آخر رمق للطفل لينقض عليه ويحصل على غذائه من جثته.

تصدرت الصورة صحيفة نيويورك تايمز، وانتشرت في أنحاء العالم انتشار النار في الهشيم، لكن لم يجنِ كارتر من ورائها سوى البؤس، فقد جاءته العديد من العروض، لكنه لم يوفق في أي منها، ثم دخل في دائرة مغلقة من الديون والإفلاس المالي، كما أصبح في أواخر عمره هشًّا عاطفيًّا، كما يحكي أصحابه في فريقه الإعلامي[1]. فقد كيفن السيطرة على

(1) Greg Marinovich, The Bang-Bang Club: Snapshots from a Hidden War, New York: Basic Books.

حياته وأصبح عبئًا على من حوله، كان يفوته موعد الطائرة، وينسى الكاميرا خاصته في وسائل المواصلات، ويخبر أصحابه مرارًا بأنه يتعاطى المخدرات، وأنه يفكر في الانتحار.

لم تشفع الجائزة المرموقة لكارتر، فقد أصبحت حياته ركامًا يتضخم يومًا وراء يوم، قال في إحدى المرات: "كل الأبواب التي فتحتها منذ فوزي بجائزة بوليتزر تُغلق في وجهي الآن، لا أحد يريدني الآن لأني لا يُعتمد عليَّ".

انتحر كيفين كارتر عقب تسلمه جائزة البولتزر وهي أرفع جائزة في المجال الفوتوغرافي ببضعة أشهر فقط! وترك من ورائه رسالة تقول: "**أعتذر، ولكن ألم الحياة يفوق متعتها لدرجة أني لا أرى متعة في الحياة مطلقًا... مكتئب، بلا هاتف، مال للإيجار، مال للعائلة، مال للديون... المال! أنا مطارد بذكريات حيَّة للقتل والجثث والغضب والألم، أطفال جائعون ومتألمون... مجانين يعشقون القتل، أغلبهم من الشرطة، والجلادين**".

يمكن النظر لحادثة انتحار كيفن من زاويتين: الأولى هي تضييعه لحياته بنفسه، فقد ألقى كيفن بنفسه في غياهب

المخدرات، ذلك النفق المظلم الذي لا يجر وراءه سوى الكوارث، في إحدى المرات عام 1993م زاره أحد أصدقائه في بيته، فلما فتح كيفن الباب لاحظ صديقه جرحًا غائرًا فوق عين كيفن، أخبره كيفن بأنها كانت ملاحقة بينه وبين الشرطة، لكنه اكتشف أن كيفن كان يكذب عليه وأن الجرح سببه حالة السكر التي دخل فيها كيفن بسبب تعاطيه لجرعة من المخدرات.

كما أن كيفن دخل في عدة علاقات جنسية ورومانسية لم يُكتب لأي منها النجاح، إحدى صديقاته كان دائم الشجار معها، يتذكر أصدقاؤه كيف كان كيفن يمزق ملابسها وهي في المقابل تمزق صوره الفوتوغرافية وتدمر أرشيفه، كانا يتشاجران حتى عند زيارة أصدقائهما لهما، كل أمسية كانت تنتهي بشجار تقريبًا.

فتاة أخرى أوقع كيفن نفسه في غرامها كانت تتلاعب به وتجعل حياته جحيمًا، وكلما أغوته تمنعت عنه أكثر، كاد كيفن يفقد صوابه بسبب هذه الفتاة ولم يستطع الارتباط بها بشكل كامل، كانت الفتاة تتعمد إذلاله، في إحدى المرات أرسل إليها

رسالة غرام فقرأتها الفتاة في حفل عشاء بصوت عالٍ ساخرة من صاحبها وتحول الحفل إلى استهزاء جماعي من كيفن، ومع ذلك كان كيفن متعلقًا بها حد الجنون.

أما المخدرات فقد غطت على قدرته على العمل، وشوشت ذهنية المصور لديه فلم يستطع التقدم بسبب إدمانه، نصحه أصدقاؤه مرارًا بترك المخدرات لكنه لم يكن يأبه لهم، قالوا عنه قبل عام من انتحاره إن المخدرات "قاربت على تدميره"، وفي نهاية المطاف أقبل كيفن على الانتحار وكانت المخدرات سببًا أساسيًّا في ذلك، فشل في المرة الأولى ثم أنهى حياته بالفعل في الثانية.

أما الزاوية الثانية فهي الانتحار بسبب المعاناة الموجودة في العالم التي ذكرها كيفن في رسالته، وللوهلة الأولى يمكننا ملاحظة أن العالم يدفعنا للجنون بالفعل، فكم الآلام والمعاناة لا يمكن لبشر أن يتصورها، والظلم جاوز المدى والبشر يعيشون أقسى مراحلهم وأفقرها بلا نزاع، كما أن الفوارق الطبقية واللا مساواة في العالم قد استفحلت بشكل أسطوري،

حتى إن بعضهم أحيانًا يتساءل: كيف يحافظ الإنسان على عقله وسط هذا الكمِّ غير الطبيعي من غياب العدالة في العالم؟

ينبهنا الكاتب السوري ممدوح عدوان في كتابه "دفاعًا عن الجنون" على أنه ينبغي لنا مواجهة هذا البؤس لا الهروب منه، قائلًا: "نحن في حاجة إلى الجرأة على الجنون والجرأة على الاعتراف بالجنون، صار علينا أن نكف عن عد الجنون عيبًا وعد المجنون عاهة اجتماعية... في حياتنا شيء يجنن، وحين لا يجن أحد فهذا يعني أن أحاسيسنا متبلدة وأن فجائعنا لا تهزنا. فالجنون عند بعض منا دلالة صحية على شعب معافى لا يتحمل الإهانة... نحن في حاجة إلى الجنون لكشف زيف التعقل والجبن واللا مبالاة، بغتة يجن شخص، يخرج عن هذا المألوف الخانق فيفضح حجم إذعاننا وقبولنا وتثلم أحاسيسنا، يظهر لنا كم هو عالم مرفوض ومقيت وخانق، وكم هو عالم لا معقول ولا مقبول. كم هو مفجع ومبكٍ وكم نحن خائفون وخانعون وقابلون"[1].

(1) ممدوح علوان، دفاعًا عن الجنون، دمشق: دار ممدوح عدوان، 2018، ص/ 16.

وإذا كان كيفن قد انتحر في عام 1994م فلا يعني ذلك "فجائية" الفقر في إفريقيا، ولا يعني أبدًا أن الفقر محتم وأن القارة الإفريقية فقيرة في مواردها، بل على العكس تمامًا، ولكن بسبب الفساد الممنهج والاستغلال الرأسمالي للقارة، تقع القارة في أسفل قائمة التقدم الحضاري، ولذا فإن الانتحار ليس سبيلًا للخروج من مأساة الظلم واللا مساواة في العالم، ولكن كيف يمكننا حل هذه الأزمة إذن؟ ألا يدفع الظلم والمعاناة الموجودان في العالم بالإنسان إلى اليأس والإحباط؟

إذا أخذنا مثالًا على جانب فقط واحد من جوانب استغلال القارة الإفريقية من أجل توضيح خيارات الحل الممكنة، فوفقًا لمؤسسة الكاكاو العالمية World Cacao Foundation، فإن مزارع الكاكاو في غانا وساحل العاج (كوت ديفوار) وحدهما تزودان الشركات والمصانع بأكثر من 70 % من إجمالي موارد الشوكولا الخام في العالم. وعلى الرغم من أن القارة الإفريقية هي المنتِجة الأولى للكاكاو في العالم، فإنها القارة الأخيرة من حيث استهلاك الشوكولا، بينما تأتي أوروبا في المرتبة الأولى من حيث الاستهلاك[1].

(1) المصدر السابق

إن مدى الاستغلال الرأسمالي للبيئة الإفريقية الفقيرة مفجع حقيقةً، حيث العمالة الرخيصة التي تعاني ظروف عمل شديدة الاضطهاد في المزارع من أجل إنتاج الكاكاو وتصديره للأوروبيين بأثمان زهيدة، هل تعلم أن الأطفال في مالي يتم اختطافهم من بين أهاليهم ثم تهريبهم إلى المزارع من أجل إرغامهم على العمل كعبيد في هذه المزارع؟

والأدهى من ذلك أن شركات الشوكولا الكبرى مثل Nestle وغيرها تعلم علم اليقين هذا الاستغلال الوحشي، لكن من مصلحة هذه الشركات أن تستمر سلاسل الإمداد بهذا الإجرام، لأنه يخفض أجر العمالة المطلوبة للزراعة، فينعكس ذلك على ازدياد ربح الشركات.

الشوكولا ليست المثال الوحيد على الانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان من قِبل النظام الرأسمالي، فمثلًا تعد أرض جمهورية الكونجو الديمقراطية أرضًا خصبة لمعدن الكولتان الذي يدخل في صناعة العديد من الأجهزة الكهربائية وعلى رأسها أجهزة الكومبيوتر والهواتف الذكية.

وحتى تستطيع الشركات الرأسمالية الحفاظ على ورود الكولتان لديها فإنها تدعم الحروب الأهلية وتدفع إتاوات للميليشيات المسلحة من أجل الحصول على المعدن. رجل أعمال واحد سويسري مثل كريس هوبر قام بتمويل الميليشيات المسلحة في الكونغو من أجل الحصول على الكولتان وبيعه من خلال شركاته متعددة الجنسيات إلى شركات Nokia وSony[1]. كما أشار تقرير منظمة Global Witness الحقوقية الصادر عام 2009م إلى أن شركتي Thaisarco وAfriMex البريطانيتين، بالإضافة إلى 200 شركة أخرى، "يعلمون كامل العلم أن وسطاءهم في عمليات الشراء هم ميليشيات مسلحة، وجميع هذه الشركات ساهمت في استمرار الصراع الذي تسبب في قتل وتهجير الملايين"[2].

إن النهب الممنهَج للقارة السمراء ليس جديدًا على العالم، بل إن التاريخ الإنساني هو تاريخ من استغلال طبقات

---

(1) اتهام رجل أعمال سويسري بتمويل متمردين،

(2) GLOBAL WITNESS UNCOVERS FOREIGN COMPANIES' LINKS TO CONGO VIOLENCE.

أخرى، لكن هل يمكن حل مشكلة نهب إفريقيا أم أن المسألة مستحيلة؟

لقد صرحت منظمة OxFam أن الشركات متعددة الجنسيات في القارة الإفريقية استطاعت أن تهرِّب أكثر من 11 مليار دولار خارج حدود القارة الإفريقية بطريقة غير قانونية في عام 2010م وحده. ومن أجل تصور مدى الكارثة، أشارت المنظمة إلى أن هذا المبلغ يساوي ستة أضعاف المبلغ المطلوب لتوفير الرعاية الصحية لأربع دول إفريقية بأكملها: سيراليون، وليبيريا، وغينيا، وغينيا بيساو[1]. أما مجلة Focus الألمانية فتقدر حجم التهرب الضريبي للشركات متعددة الجنسيات بــ 50 مليار دولار سنويًّا، وهو رقم هائل يتعدى حجم المساعدات الإنمائية المقدمة للقارة بأكملها[2].

هذه الأرقام توضح أن حل المسألة ممكن إذا انقطعت سلسلة الاستغلال، نحن إذن مأمورون -شرعًا وعقلًا- بتوجيه غضبنا ونشاطنا تجاه أولئك الذين ظلموا، نقاومهم ونمنعهم من التمادي في الاستغلال ونحرر من استطعنا من رقبة

---

(1) Multinational companies cheat Africa out of billions of dollars.

(2) Beyond Africa: how companies handle taxes.

المستبدين، نفرض على الشركات القيود ونحاكم المخطئين منهم ونقاوم المستغلين الذين يتلاعبون بأرواح الناس من أجل زيادة أرباحهم. هذا هو المعقول، وهو ما يمكن استخلاصه من قول الله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

أما توجيه العنف إلى الذات وارتكاب الانتحار فليس حلًّا لمشكلة ولا سبيلًا للخروج من مأزق، بل على العكس؛ يزيد الانتحار المشكلة تعقيدًا، في الدنيا والآخرة. إن فخ العدمية سهل المنال واليأس جذاب، لذا ينبغي لنا أن نتماسك لأن الأزمة شديدة الصعوبة، ثم نستفرغ الوسع لإنقاذ أنفسنا وإنقاذ الضحايا من حولنا، ولا ينجو المرء إلا بفضل الله ثم بإخوانه.

إن الانتحار بسبب الظلم في العالم يعد كإعلان هزيمة للنفس أمام العالم، فطبيعة الدنيا هي الكدُّ والدفع المتواصل والابتلاء المستمر، والمرء لا تهزمه الخسارات وإنما يهزمه اليأس وفقدان الأمل. نعم، ربما يتحطم الإنسان بفعل الظروف لكنه لا ينهزم إلا إذا قرر هو كذلك، فاليأس قرار شخصي وليس مجرد حالة تجبرك عليها الظروف، ولذا قال تعالى:

﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

ونحن بعد كل هذا مطالبون بالمقاومة، بتنظيم الصفوف ورفع وعي الجماهير من أجل صد هذا العدوان الغاشم على كل ما هو إنساني، نحن مطالبون بالدفاع عن حقوقنا واستنقاذ المستضعفين من أيدي الظالمين. ودفاعنا هذا له تكلفة، أما العيش في كنف اللا مبالاة فلن يثمر شيئًا وسيصطدم بواقع اللا مساواة صدمة ربما تؤدي إلى اليأس الكامل كما حدث مع زميلنا كارتر.

إن المقاومة ليست اختيارًا ولا رفاهية وإنما هي ضرورة إنسانية وشرعية، أو كما يقول المدون محمود أبو عادي: «والأمل في التحرُّر لا يعني التحرُّر الآن وعلى الفور، فلا بُدَّ أن نُناضل من أجل الحُرِّية في إطار الظروف التاريخية المُواتية، فإذا لَم تتهيَّأ الظروف، فعلينا أن نُواصل العمل مُتسلِّحين بالأمل من أجل الحصول على مطالبنا. فالتحرُّر إمكانية وليس قدرًا أو مصيرًا أو عَبَثًا.

ولهذا السبب، فإنَّ أكثر النَّاس استسلامًا للواقع، وأقلهم قُدرة على الحلم والأمل، يصبحون أقل صلابة وقُدرة على مواجهة التحدِّيات، كُلَّما أصبح الحاضر أكثر ظلامًا، وكُلَّما أخذت شمس المُستقبل في المَغيب. ويتوارى أمل المقهورين، كُلَّما نَعم القاهرون بالأمن والسلام.

هذا كُلُّه ينقُلُنَا إلى قيمة الصَّبر، هذه القيمة المركزية جدًّا في مسألة الإيمان، والتي يتوقَّف عليها مصير المؤمنين ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾»[1] [آل عمران: 142].

لقد أنذرنا الله -عز وجل- أن ترك الدفع والتراضي مع المستغلين والمستبدين سينهي بنا الحال إلى انتشار الفساد في الأرض، فساد التقنية وفساد الإنسان وفساد البيئة وكل فساد متصور، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]. فمن ترك أمر الله، فلا ينتظر إلا وعيد الله، والسعيد من وفقه الله.

---

(1) محمود أبو عادي، العيش في الأزمنة الصعبة: خيارات المقاومة.

ومن اللافت أنَّنا نجد سورة كاملة في القرآن (سورة البروج) تخبرنا بأنَّ هناك قومًا بأكملهم حُرِّقوا نتيجة ظلم ملكهم، بل أُبيدوا جميعًا عن بكرة أبيهم، في بيان قرآني جليٍّ يوضح لنا سريان قانون التدافع على جميع الخلق في الدنيا حتى لو كانوا أهل الله وخاصته أنفسهم: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: 5-8].

إن هذا المعنى شديد الأهمية، إذ إن القرآن يخبرنا بأن الظلم الذي يتعرض له المؤمنون في الدنيا لا يساوي شيئًا أمام عذاب جهنم وأهوال يوم القيامة، وفي المقابل فإن التنعم الذي يتقلب فيه الظالمون والكفار سينسونه تمامًا عند أول غمسة يُغمسونها في جهنم، ولذا جاء التقرير الواضح في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: 10-11].

وكأن السورة تخبرنا بأن كل المعاناة في الدنيا لا توزن أمام الثواب والعقاب في الآخرة، وكأنها أيضًا تخبرنا بأن

العدالة الكاملة لن تتحقق سوى يوم القيامة، حين يقتص كل مظلوم من ظالمه، وكل مستضعف من آكل حقه، وترد الحقوق حينذاك ويأخذ كل ذي حق حقه.

ولذلك فإنَّ الله -عز وجل- يخبرنا بأنَّ المؤمنين لـمَّا دعوا الله لينصرهم ويحقق لهم التمكين: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194] لـم يخبرهم الله تعالى بأنَّه قد استجاب لهم الدعاء بشكل مجرَّد وفوري، وإنَّما ربط إجابة الدعاء بالعمل والسعي من أجل تحصيل التفوق والنصر، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: 195]. فالدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء، والإنسان مطالب بالسعي فيها والكدِّ والبذل حتى يلقى الله وهو على الطريق، لا غير.

ورحم الله عبد الوهاب المسيري عندما سُئل عن الحل في قضية فلسطين فقال: «المقاومة، والمزيد من المقاومة». إن هذا الفقه في التعامل مع النوازل والأعداء سيبدد تعلق المؤمنين بالدنيا، ويصوب أعينهم نحو الآخرة، والآخرة خير وأبقى.

7

"تسللت روحي من جسدي"

أروى صالح (1951-1997)

كاتبة وروائية مصرية

” إنني دون حماية من المؤسسات التي احتمى بها معظم جيلي وأنا متشردة في الحياة دون وضع اجتماعي من أي نوع. حتى السكن كان في ضيافة أختي... تتسلل الروح من الجسد، تاركةً إياه تذروه الريح، لا يعود هناك لا أنا ولا آخر“.

وُلدت أروى صالح بالقاهرة عام 1951م لأب يعمل وكيل وزارة، وهو منصب يضمن لصاحبه مكانة وسط علية القوم في ذلك الوقت، ودرست الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، عقب تخرجها عملت مدرسة لفترة وجيزة، ثم انتقلت للعمل بوكالة الشرق الأوسط للأنباء، وأخيرًا مترجمة في جريدة العالم اليوم الاقتصادية.

مثلت الفترة الجامعية محور حياة أروى، فقد آمنت أروى بالعدالة الاجتماعية حدَّ السماء، ودخلت أروى الجامعة في مرحلة ملتهبة من الحراك الطلابي، فقد تحطم المشروع الناصري إثر هزيمة 1967م ثم وفاة عبد الناصر نفسه، وسعى السادات إلى الانفكاك عن الاتحاد السوفيتي وتولية وجهه شطر أمريكا، كما كانت مصر آنذاك في مرحلة لا-حرب-ولا-سلام مع الكيان الصهيوني، كما أصدر السادات

قرارات رفع الدعم جزئيًّا عن السلع ورفع الأسعار. فاشتعل الطلاب وكانت صالح إحدى -أو بالأدق من قلائل- الطالبات المشاركات في النضال الطلابي.

سارت أروى أولى خطواتها في الجامعة عقب مظاهرات عام 1968م التي خرج فيها الطلاب للمطالبة بمحاكمة حقيقية لمن تسببوا في هزيمة يونيو، كان الزخم وليدًا والمنظمات الطلابية ناشئة، فتحمست أروى فورًا وخرجت في المظاهرات وطبعت المنشورات وشاركت في إلقاء الشعر وتوزيع البيانات، ثم انطلقت موجة المظاهرات القوية عام 1971م مرورًا إلى 1973م، نالت هذه الاحتجاجات تأييدًا واسعًا من الشعب وتعاطفًا من شرائح واسعة من المجتمع. في أحد اعتصامات هذه الفترة قبض النظام على أروى مع 1000 طالب آخر مشاركين في الاعتصام الجامعي، قبل أن يطلق سراحهم بعد أيام.

برز نجم أروى مبكرًا، فقد كانت مثقفة متقدة الذهن، تهوى القراءة وتجيد التحليل، انخرطت في نشر كتاباتها السياسية تحت اسم حركي "عايدة" كما أن لها دراسات منشورة باسم

صفاء إسماعيل، شهد كل من حولها بحدة فكرها وذكائها الوجداني والمنطقي كذلك، استطاع الشيوعيون توظيفها في النواحي النخبوية وسط الدوائر الثقافية، لعدم قدرتها على التفاعل الجماهيري الواسع في الخطب والمناظرات ونحو ذلك.

مثَّل انحياز الشعب لحركة أروى ورفقائها نشوة حركية، فانغمسوا بشدة في نضالهم الطلابي، واعتقدوا -الحركة- أنهم على بعد خطوات معدودة من تحقيق اليوتوبيا الاشتراكية. شاركت أروى في تأسيس حزب العمال الشيوعي المصري[1]، وبدا أن الحلم الذي يراودهم على بعد خطوات قليلة من التحقق، لكن ما لبثت أن استحالت أحلامهم سرابًا، فقد جاء الانتصار الذي روج له النظام عقب حرب أكتوبر 1973م ليمثل منعطفًا

---

(1) كلمة حزب هنا مجازية، إذ إن أغلب المجموعات الماركسية الراديكالية حينذاك كانت دوائر ضيقة تستلهم شعارات ضخمة، فحزب العمال هذا مثلًا لم يكن حزبًا سياسيًا وإنما مجرد تجمع للناشطين والمفكرين. تقول الباحثة حنان حماد -أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة تكساس الكاثوليكية، إن الماركسيين حينذاك "كانوا قادة دون أعضاء، لم يكن لهم قواعد شعبية، وكانت أكبر دائرة ماركسية تحوي مئات الأعضاء فقط، كانت العوام إما لا يفهمونهم أو لا يعبؤون بهم". انظر: Hanan Hammad, ARWA SALIH'S "THE PREMATURE": GENDERING THE HISTORY OF THE EGYPTIAN LEFT.

حقيقيًّا في مسار الحركة الشيوعية سيؤدي إلى وأد الحركة الشيوعية، ربما للأبد.

فعلى إثر الانتصار العسكري تحول السادات حينذاك إلى بطل وأيقونة في نظر الشعب، وانفض الناس من حول اليساريين ليلتفوا حول البطل الجديد الذي انتصر على ألد الأعداء واستعاد الأرض المحتلة بسيناء. فقدت أروى زخم المجتمع والطلاب من حولها ووجدت أن الناس بدؤوا يتناولون الشيوعية بالسخرية والاستهزاء، وما زاد الأمر بؤسًا بالنسبة إلى أروى هو إفراج السادات عن أعضاء الجماعات الإسلامية الذين ما لبثوا أن استرجعوا دورهم الجامعي فبدأت الصدامات والمواجهات الدموية بينهم وبين اليساريين داخل وخارج أسوار الجامعات.

اكتسب الإسلاميون مساحات جديدة من التأييد يومًا وراء يوم وبدا واضحًا أنهم يسحبون البساط من تحت أقدام الشيوعيين، هنالك لم تستطع أروى مواجهة المارد الإسلامي الصاعد من ناحية والانفتاح والتمويل الغربي للناشطين من ناحية أخرى، أما رفقاؤها في الحركة فقد تخلوا عن القضية

وارتموا في أحضان الغرب مخالفين تاريخهم النضالي وما رفعوه من شعارات براقة طيلة حياتهم عن النضال الطبقي ومعاداة الإمبريالية والانحياز للفقراء والمهمشين.

هنا إذن -في أواخر السبعينيات- تعرضت أروى لأزمة وجدانية ضخمة، إذ رأت المشروع الشيوعي يتهاوى أمام عينيها، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا سنرى أن حياة أروى انقلبت رأسًا على عقب وصارت مغتربة عن المجتمع، ثم عن رفقائها، ثم عن نفسها. أما حياتها العاطفية فلم تكن بمعزل عن تلك التحولات النفسية بالتأكيد، ولذلك فقد تزوجت أروى ثلاث مرات، لم تنجح إحداهن في إشباع حاجتها النفسية للاستقرار والسكينة.

صدَّرت أروى الفصل الأول من كتابها الأشهر "المبتسرون" بالأبيات التالية لصلاح جاهين:

غدر الزمان يا قلبي ملوش أمان

وحييجي يوم تحتاج لحبة إيمان

قلبي ارتجف وسألني.. آآمن بإيه؟

آمن بإيه.. محتار بقالي زمان

وعجبي.

يشهد زوجها السابق خالد جويلي على صفات الدأب والإصرار والمثابرة على كشف الحقائق والغوص في أعماق التحليلات والدراسات. يقول زوجها السابق: «كان لديها حصانة ضد الخبرة العملية اليومية، أي كيفية مرور الشارع أو كيفية الطبخ أو أي مهارة بسيطة، لا تفكر فيها ولا تنشغل سوى بالقضايا الكبرى».

ويكشف جويلي عن نقطة محورية تشكل كيان أروى، إذ يقول إن أروى: «كانت تستمد ثقتها في المجتمع وفي التاريخ عبر أشخاص، أي إنها لا غنى لها أن تؤمن وتعتقد بشخص معين». ويؤكد أن الجانب الوجداني كان يغلب كل جوانب شخصيتها الأخرى.

تجربة أروى العاطفية الأولى كانت وهي بنت 15 عامًا فقط عندما أحبت شابًا يكبرها بسنوات عديدة، وهو بهاء النقاش الذي توفي لاحقًا في حادث سيارة، أصبحت أروى

محط سخرية وغضب لمن حولها، فكيف تحب شابًا يفصل بينهما هذه الفجوة العمرية الكبيرة! لكن هذا لم يمنع أروى من الارتباط به، وظلت تتردد على بيته في زيارات متكررة طويلة الأمد، تمتد إلى الساعات الأولى من الفجر، تفوح منها نسائم الحب والشغف.

لكن لأسباب غير مفهومة انفصلت أروى عن بهاء، فجأة. تحكي أمينة النقاش، شقيقة بهاء، أن بهاء تأثر كثيرًا بانفصال أروى عنه، فألقى بنفسه في غياهب الاكتئاب، وترك نفسه نهبًا لعلاقات نسائية «لا اختيار له فيها»، اتسمت معظمها بطابع المغامرة والتخبط، أكثر مما كانت تعبر عن مشاعر حب حقيقية، قادته إحداها لأن يفقد حياته في حادث سيارة عبثي، في صيف عام 1981م.

ذكرت أروى لاحقًا ثم بعد نضوجها وتأملها في هذه التجربة قالت بعد سنوات إنها كانت تجربة عشق ولم تكن تجربة حب، وأن هذه التجربة المؤلمة شوَّهت قدرتها على الشعور بالحب، وقالت لأخت بهاء أسباب انفصالها قائلة: «لم أعرف لماذا تركت بهاء، أنا عاجزة عن الحب ولا أدري لماذا، وقد تكررت

القصة هذه بحذافيرها في كل علاقة لاحقة، ولم يُحَل اللغز إلا بعد أن بلغت الثامنة والثلاثين، حين استطعت أن أحب لأول مرة... لم تكن المعجزة تخص الحبيب، بالعكس، في كل خطوة خطوتها في حياتي الشخصية كنت أدرك -صراحة أو ضمنًا- أن بهاء كان أقرب إنسان لي، لم تكن معجزة، إنما كان الجانب الهش في تكويني النفسي، إلى حد خطر، الذي يبحث طوال الوقت عن أمان استثنائي لا يستطيع أن يوفره إنسان في الواقع، لأن الثقب كان في الداخل وعميقًا جدًّا».

مع مرور الوقت، ازداد حلم الشيوعية أفولًا، وتشوشت أفكار أروى، وفقدت سيطرتها على الواقع في حياتها الخاصة وفي المجال العام، ولم تستطع التكيف مع الواقع، فقررت خوض رحلة العلاج نفسي في أسبانيا. عانت صالح طيلة سنوات عمرها الأخيرة الاكتئاب ونوبات من انفصام الشخصية، حتى في أسبانيا عانت الأمرَّين هناك، فلم تجنِ سوى المزيد من الاضطرابات وانتهت فيها بردة قاصمة إلى الهيستيريا، وكانت ثلاجتها شبه فارغة، فعادت إلى مصر بخفي حنين.

وعندما رجعت لم يكن حالها أحسن مما سافرت به، فكتبت كتابها «المبتسرون» وعرضت المسودة على أصدقائها رفاق النضال الطلابي القدامى، ففوجئت بهم يسخرون منها ويسألونها «هل تكتبين لمجرد جلد الذات؟ اكتبي رواية بدلًا من هذا». صُدمت أروى عندما رأت الجميع قد تخلى عن أحلامهم التي تشاركوها معًا، اكتشفت أن الحاضر الذي تكتب عنه هو ماضي، اكتشفت أنها دخلت في هوة سحيقة وأغلقت على نفسها الفقاعة حتى ما عادت ترى العالم على ما هو عليه وإنما على ما تتوهمه.

ذبلت روح أروى تمامًا، لا انتماء لشيء ولا إيمان بالله ولا صحبة طيبة ولا زواج أو استقرار ولا عيال ولا عمل أو دخل ولا أمل ولا شيء، بالإضافة إلى تدهور مستمر للصحة النفسية والجسدية وضمور ذهني وفكري وانعزال عن الناس. تصف أروى هذه الفترة من حياتها قائلة: «**إنني دون حماية من المؤسسات التي احتمى بها معظم جيلي، وأنا متشردة في الحياة دون وضع اجتماعي من أي نوع. حتى السكن كان في ضيافة أختي**».

ويبدو أن أروى لجأت إلى مجموعة أفكار تخيلية كسلوك تعويضي عما واجهته من حرمان أو أزمات وغرقت في أحلام اليقظة بالساعات الطوال في اليوم الواحد، كما عبرت عن ذلك في دفاترها التي نُشرت بعد موتها تحت عنوان «سرطان الروح». تابعت مع معالجة نفسية، وحاولت الانتحار عدة مرات. صار الجسد خاليًا من الداخل، تاهت الروح في دروب الحيرة، فكأن الجسد لم يعد له فائدة، وكأن قرار الانتحار حينذاك كان مواتيًا ومتماشيًا مع جسدها المنهك الخالي من الروح، ولم يكن ثمة شيء يراجع قرارات أروى، فقد كانت وحيدة تمامًا.

كانت أروى نشيطة مفعمة بالحيوية لا تكف عن الحديث عن الثورة التي ستعدل ميزان الكون المختل في كل خرائط العالم، لكن عالمها المتخيل بدأ في التهاوي قطعة قطعة: الأحزاب الشيوعية صارت متناحرة ونخبوية وبعيدة عن الجماهير، رفاقها القدامى باعوا القضية واتجهوا إلى التمويل الغربي أو إلى الانسحاب من المجال العام تمامًا، سقط الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية وتسيد الغرب العالم، خذلتها زيف الشعارات ورومانسية الأفكار التي كانت تؤمن بها، حتى

حياتها الشخصية كانت لا تزيد شعورها إلا بالخيبة، لا أصدقاء ولا عائلة ولا عمل ولا دين، واضطرابات نفسية واكتئاب لا مناص من الخروج منهم.

صرحت بأنها فرد من جيل مبتسر دخل في خضم معركة وهو غير مؤهل لها. يبدو أنها راجعت نفسها وتوصلت إلى أن أفكارها كانت متعالية على الواقع، مثالية، تكتب في آخر عمرها أن الحياة صارت كالموت، فلا شيء عندها يستحق الحياة، تقول: "**بفتكر حاجة بشعة سمعتها عن تقليد ياباني، إن الناس لما تعجز تاخد قليل جدًّا من الزاد وتطلع على قمة جبل تستنى الموت فيه. غصب عني إبتديت أشوف فيها فكرة وابتدت تداعبني فكرة! إني لما أوصل لمرحلة معينة من العجز أنتحر. ابتديت لأول مرة في حياتي أتأمل شوية الموت بس مش من زاوية ميتافيزيقية. بمعنى البحث عما وراء الحياة، لكن بعدِّه عملية قضاء على الحياة... يبدو لي أن طبيعة موت ما بتحددها طبيعة حياة الشخص اللي بينتهي دا. إيه اللي ممكن يفقده شخص زي دا بالموت؟ هيتخلص من وضعه المهين على الأقل. وضع فقد فيه**

صفته كبني آدم. الغريب أنه من الزاوية دي الموت يبدو لي مش مخيف".

لقد وصفت أروى نفسها بأنها عاجزة عن الحب، ذات وضع مهين، فاقدة لصفتها كإنسانة، هشة في تكوينها النفسي، متشردة في الحياة، ضائعة بلا أسرة ولا رفاق، غير مؤمنة بأي شيء، فما الذي يحول بينها وبين الموت؟

لقد تعلقت أروى بين أنا ونحن، بين حلمها بالتغيير وبين الواقع المرير. بين الرفقة الوفية وبين الوصوليين، بين المبادئ المثالية والحقائق القاسية. عشقت أروى المجهول، وغرقت في أحلام اليقظة، تخيلت أن الملحمة النضالية ستحول البلاد إلى أرض عدل في غضون سنوات قلائل، فلا هي رضخت للوضع القائم ولا هي تمردت عليه وحاولت تغييره، لقد وقعت في نفق الحيرة بسبب إيمانها بيوتوبيا غير قابلة للتحقق، ثورة سريعة تأتي بكل الحقوق وتصلح ما أفسده الزمان بكبسة زر[1].

---

(1) مستفاد من مقال: هبة عبد الجواد، العالقون بين المعارك.

وعندما اصطدمت أروى بالواقع باتت أمانيها حياتها، فلا ترى قبلها ولا بعدها، وحاصرت نفسها في إطار أفكارها الخاصة وحرمت نفسها من الحياة الواقعية في مقابل العيش في فقاعة أمانيها.

وفي هذا السياق يقول كارل مانهايم، عالم الاجتماع المجري، واصفًا الحالة التي عاشتها أروى ومثيلاتها: "وربما يتعرض المرء لصدمة تجعله يتخلى عن أحلامه التي أصبح يراها وهمًا كبيرًا، فيفقد جزءًا كبيرًا من كيانه الشخصي كان يعتمد فيه على رغبته في العيش فتتجه اهتماماته إلى أمور بسيطة اعتيادية كمشاغل العيش الحياتية أو الترفيه المبالغ فيه ومحاولة الهرب من التفكير في كل ما كان يشغل عقله سابقًا، وهو ما يفسر عدم اكتراث بعض الشباب اليوم بالشأن العام بعد أن كانوا من قبل في أوج حماستهم للتغيير وحلم الثورة، أو يصبح مبالغًا في الواقعية والتفكير العملي ويتحول عقلًا عملياتيًّا ويفقد ما يجعله إنسانًا متطلعًا طموحًا، أو كما يحدث عند الأفراد والجماعات التي تعرضت لهذه الحالة من

الإفراط في اللجوء إلى مرفأ الماضي وإنجازاته وانتصاراته وتضحياته"[1].

إن الانخراط في الواقع لا يعني بالضرورة الاستسلام له، فالأفكار التي تسمو على النظام القائم إذا لم تندمج مع العالم كما هو عليه فإنها ستتحول إلى أحلام يقظة لا تسمن ولا تغني من جوع، وما لم يتمكن الإنسان من تحديد معالم الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي بشكل واضح فإنه لن يستطيع تغييره.

وعند فشل الإنسان في قراءة الواقع بشكل سليم فإنه سيترك بناء الأدوات وترتيب الأولويات وامتلاك الآليات والوسائل اللازمة للتغيير وسيهرب إلى عالم الأمنيات والأحلام يتلذذ فيه بإكمال الصورة الناقصة للواقع الذي يراه أمامه. ومن ثم فإن الفاعلية الإيجابية تعني الإيمان بأفكار ترفض الوضع القائم مع الحفاظ على الاشتباك مع الواقع من أجل تطبيق هذه الأفكار من داخله وليس من خارجه.

---

(1) كارل مانهايم، الأيدولوجيا واليوتوبيا، الكويت: شركة المكتبات الكويتية، 1980.

وأخيرًا... إذا وضعنا أنفسنا مكان أروى في أواخر سنوات عمرها، ووجدنا أننا نمر بحالة نفسية سيئة، فإلى من سنلجأ؟ رفاقي القدامى هجرتهم بسبب تلونهم وخذلانهم للقضية، لا شريك في حياتي يزيح عني همومي ويكفكف دموعي وأستند إليه في الأوقات الصعبة، لا أطفال لديَّ يدخلون إلى قلبي السرور ويقرون عيني برؤيتهم، لا إله أؤمن به وأدعوه وأضطر إليه في الشدائد وأظهر إليه الافتقار والانكسار وأطلب منه العون والنصرة والثبات.

إن غياب الصحبة الصالحة، والأسرة الداعمة، والحياة الاجتماعية السوية، والإيمان بالله وباليوم الآخر، كل هذه العوامل سلبت من أروى فرصة السواء النفسي والخروج من نفق الاكتئاب، فلم يكن هناك أحد ليدعمها، ولم يكن ثمة من يمد يد المساعدة والعون إليها، ولم يكن لها متنفس تبوح إليه لتزيح قليلًا من الهموم المثقلة على كاهلها. لم تكن تتكلم مع أحد وفقدت الثقة في التاريخ وفي الناس وفي الدين وفي كل ما هو موجود، فكان منطقيًّا أن ينتهي بها الاكتئاب إلى الانتحار أو الجنون.

وأختم هذا الفصل بما نبه عليه ابن حزم -رحمه الله- إلى خطورة وأهمية هذا البوح التنفيسي لكل إنسان، ويحكي عن بعض المحبين الذين لم يجدوا أخًا لهم يصلح للبوح قائلًا: "فكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس، ويناجي الهواء، ويكلم الأرض، ويجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوُّه، والمحزون في الزفير، فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها، فإن لم يِفِضْ منها شيءٌ باللسان، ولم يسترح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك غمًّا ويموت أسفًا"[1].

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، الرسائل 164/1.

8

"

"أنت من عذبتني وجعلتني
أشعر بالموت من داخلي"

جيا خان (1988-2013)

ممثلة هندية

"

”أنا لا أعرف كيف أقول هذا لك ولكني أفعل الآن لأني ليس لدي شيء لأخسره، لقد فقدت كل شيء بالفعل، إن كنت تقرأ رسالتي هذه ربما أكون قد تركتك بالفعل أو على وشكِ المغادرة. أنا محطمة بداخلي. ربما لا تعرف ما أكنُّه لك من مشاعر ولكنك قد أثَّرت فيَّ بعمقٍ إلى نقطةٍ فقدتُ فيها نفسي في محبَّتي لك، ومع ذلك كنت تعذِّبني كل يوم هذه الأيام. لا أرى أي ضوءٍ، أستيقظ وأنا لا أريد الاستيقاظ“.

من بين آلاف القصص للمنتحرات اخترت هذه الفتاة تحديدًا لأنها تعبر عن شريحة عريضة جدًّا من الفتيات (وربما الشباب) اللاتي يقعن ضحايا أنفسهن في حكايات الغرام والعشق نتيجة للعلاقات الخطرة والسامة.

وُلدت نفيسة خان، الشهيرة بجيا خان، عام 1988م بمدينة نيويورك، لوالدين هنديين متجنسين، يعملان في مجال التمثيل والفن، ومنذ طفولتها تعلقت جيا بأمها للغاية وظلت تعيش معها حتى انتحارها، لكن على النقيض كانت شديدة الانفصال عن أبيها، فقد تركها أبوها وهي بنت عامين فقط، ويبدو أنها لم تكن تحمل له أي مشاعر محبة على الإطلاق، فقد قالت عنه لاحقًا: "يجب أن يُشنق في ميدان عام لأنه ترك ابنته وهي ذات عامين فقط". ترك الأب جيا مع أختين صغيرتين: كافيتا وكاريشما، وتولت الأم رعايتهم جميعًا وحدها.

خطت جيا على خطى أمها وعملت في مجال التمثيل وصعد نجمها في بوليوود، وبدا مشوارها المهني متألقًا، فتاة من أصول هندية، تحمل الجنسية البريطانية، ضمنت أمها وخالاتها الممثلات تقدمًا مهنيًّا مضمونًا، مستواها المادي مرتفع، ومثلت فيلمًا مع أميتاب باتشان، عائلة مترابطة -باستثناء الأب- وأصدقاء وصحة جيدة، فما الذي يمكنه أن يكدر صفو هذه الحياة الهادئة المريحة؟!

في 3 يونيو 2013م اصطحبت جيا أمها -رابيا- لشراء هدية عيد ميلاد أختها، تنزهن قليلًا في الشارع ثم اشترين الهدية بالفعل واتفقت مع أمها على أن تستقبل جيا أختها من المطار في بومباي وترافقها إلى بيتها. بدا اليوم طبيعيًّا للغاية كعادة حياة جيا الهادئة، ثم تفرقت السيدتان وذهبت الأم لإحدى صديقاتها تقضي معهن سهرة لطيفة تتبادلن فيها السمر والحكايات اليومية، وقبل منتصف الليل بقليل استأذنت الأم لترجع إلى بيتها.

فوجئت الأم عندما دخلت بيتها أن جميع الغرف مغلقة وجميع الأنوار مضاءة، لم تكن هذه عادة البيت، ظلت تجوب

الغرف بحثًا عن ابنتها وساورها القلق مباشرة مستشعرة أن ثمة أمرًا ما، ثم تفاجأت الأم عندما عثرت على ابنتها في هيئة صادمة صرخت الأم فور رؤيتها: فقد وجدت جيا وهي معلقة من على حبل متصل بسقف غرفتها في بيت عائلتها، لا تتنفس ولا تتكلم، فقد كانت جثة هامدة لفظت آخر أنفاسها منذ ساعة زمن تقريبًا عندما شنقت نفسها بنفسها دون أي آثار للاعتداء الخارجي عليها.

جاء الطبيب صديق العائلة ليفحص الجثة فوجدها فارقت الحياة بالفعل، وكان موت جيا فاجعة غير متوقعة، فمن أين يأتي فجأة هذا القرار القاتل وهذه الفتاة الصغيرة (25 عامًا) لم تشتكِ من شيء لأهلها طيلة الفترة السابقة ولم يبدُ عليها أي ميول انتحارية؟!

سنرجع بعض الأشهر القليلة إلى الوراء، تحديدًا في سبتمبر 2012م، حين تعرفت جيا خان على سوراج بانشولي ابن الممثل أدتيا بانشولي، كانت العلاقة "فيسبوكية" علنية بعدِّها مجرد علاقة عاطفية بين شاب وفتاة مراهقين في بداية حياتهما التمثيلية، لكن علاقة ما وراء الكاميرات كانت أعمق،

فقد دخل الاثنان في علاقة حميمية وكثرت اللقاءات الخاصة بينهما، وانتهى الأمر بجيا إلى حملها بجنين في بطنها.

ترددت جيا في أول الأمر في إبلاغ حبيبها بالحمل المفاجئ، ثم تواصلت معه وهي متلهفة لبداية جديدة في علاقتهما، فأخبرته وهي في الأسبوع الرابع من الحمل منتظرة منه الدعم المعنوي المناسب لتشاركه الفرحة بقدوم مولود جديد، لكن على النقيض قابلها سوراج بجفاء شديد وعنفها للغاية خائفًا على مستقبله المهني من الضياع، فظل يقنعها مرارًا بإسقاط الجنين حتى رضخت له.

ذهب الحبيبان إلى طبيب وصف لهما مجموعة من العقاقير تهدف إلى إسقاط الجنين دون مشكلات، انتظمت جيا على تناول العقاقير حتى فوجئت في يومٍ ما بآلام شديدة ونزيف دموي متواصل، فاتصلت بسوراج لينقذها ويصطحبها للطبيب لكنه أخبرها بالتريث وعدم الذهاب إلى الطبيب، ثم سارع مهرولًا إلى بيتها، ودخل عليها وهي في حالة من الإعياء الشديد، ابتهجت بقدومه ظانة أنه سيأتي ليخفف عنها، لكن ما حدث كان يفوق الخيال، فقد أدخل بانشولي يده بنفسه

في رحم جيا، وأمسك بما استطاع من أحشاء الجنين الذي ما يزال في طور التكون الأولي، ثم جذبه بيده بكل قوته خارج الرحم فأسقط الجنين بيده، ثم حمل كتلة الدماء ورماها في المرحاض، وأجرى عليها المياه.

كانت الصدمة هائلة بالنسبة إلى جيا، ويرجح أنها وقعت في إغماء، ولما أفاقت لنفسها بعد أيام، وجدت نفسها متورطة في حادثة سرية أحدثت تشوهًا نفسيًّا عميقًا فاستنجدت مرة أخرى ببانشولي وحاولت التواصل معه، لكن ظل سوراج يتجنبها يومًا وراء يوم وهي تستغيث به بلا جدوى، ولاحظت جيا أن تجاهله وإهماله انقلب عنفًا وتعنيفًا، فطفق يكيل لها السباب ويلقي عليها وابلًا من الشتائم، وظلت لآخر يوم في حياتها تتصل به ولا تجد سوء الجفاء والبرود، مما تسبب في دخولها في نفق اكتئاب مظلم أدى في نهاية المطاف إلى انتحارها.

وسأنقل للقارئ والقارئة الكريمين نص الرسالة كاملةً لأنها تحوي درسًا بليغًا: إن العلاقات الهزلية التي تبدأ بالحرام،

وتقوم على الأوهام، وتستند على الشهوة العابرة لا الزواج المستقر، فإن نهايتها كارثية على الأطراف كلها.

تقول جيا في رسالتها:

"أنا لا أعرف كيف أقول هذا لك ولكني أفعل الآن لأني ليس لدي شيء لأخسره، لقد فقدت كل شيء بالفعل، إن كنت تقرأ رسالتي هذه ربما أكون قد تركتك بالفعل أو على وشكِ المغادرة. أنا محطمة بداخلي. ربما لا تعرف ما أكنُّه لك من مشاعر ولكنك قد أثَّرت فيَّ بعمقٍ إلى نقطةٍ فقدتُ فيها نفسي في محبَّتي لك، ومع ذلك كنت تعذِّبني كل يوم هذه الأيام. لا أرى أي ضوءٍ، أستيقظ وأنا لا أريد الاستيقاظ.

كان هناك وقت رأيت حياتي معك، مستقبلي معك، ولكنَّك حطَّمت أحلامي. أشعر بالموت في داخلي، أنا لم أعطِ أحدًا من قبل مشاعري ونفسي كما أعطيتها لك، ثم قابلت حبي بالغش والكذب، لم يهم كم من الهدايا أعطيتك أو كم كنت أبدو جميلة لأجلك. وكنت خائفة من الحمل لكني أعطيتك نفسي. لقد دمَّرت كل ذرة في كياني، لا أستطيع أن آكل أو

أنام أو أن أفكر أو أن أعمل، أنا أهرب من كل شيء، حتى مساري المهني لا يستحق شيئًا بعد الآن.

عندما التقيتِ بك لأول مرة كنت مدفوعة، طموحة، ومنضبطة، ثم سقطتُ في حبِّك. اعتقدت أن حبِّي لك سيجعلني أفضل وسيجعلني أتوهج، أنا لا أدري لماذا جمعنا القدر معًا! وبعد كل الألم، والاغتصاب، والتعدي، والعذاب الذي رأيته لا أستحق هذا. لم أكن أرى أي حبٍّ أو التزام منك، أنا فقط أصبحتُ خائفة على نحو متزايد من أنك سوف تضرُّني عقليًّا أو جسديًّا، كانت حياتك عن الحفلات والنساء، وحياتي كانت عملي وأنت فقط.

وداعًا لـعشرةِ أعوامٍ وظيفية، ووداعًا للأحلام. لم أخبرك بأنني تلقيت رسالة عنك، عن غشِّك لي، لكني اخترتُ تجاهلها، قررت أن أثق بك، لقد تسببت في إحراجي، لم أخرج قط مع شخص آخر، أنا شخصٌ مُخلصٌ ووفيٌّ لك، لن تقدر امرأة أخرى أن تعطيك بقدر ما أعطيت لك أو تحبُّك بقدر ما أحببتك، أستطيع أن أكتب ذلك بدمي.

شعرت بألم كسر القلب عندما يريد الشخص الذي تحبه أن يعتدي عليك أو يهددك أو يضربك أو يخونك ويخبر الفتيات الأخريات بأنهن جميلات أو يطردك من المنزل عندما تذهب له معبرًا عن حبك أو عندما يكذب في وجهك أو يجعلك تطارده في سيارة أو لا يحترم عائلتك. أنت لم تلتقِ بأختي قطّ، ولم تشترِ لها الهدايا حتًّى، وأنا اشتريت لأختك هدايا.

لقد مزَّقت روحي، ليس لدي أي سبب للتنفس بعد الآن، كل ما أردته هو الحب، مجرَّد الحب منك. فعلت كل شيء لك، كنت أعمل من أجلنا نحن الاثنين، ولكن لم تكن قط شريكي. لقد دمَّرتَ مستقبلي، وانتزعتَ سعادتي بعيدًا عنِّي، كنتُ دائمًا أتمنَّى الأفضل لك وكنت على وشك استثمار القليل من المال لأجلك ولتحسين حالك. ولكنك لم تقدِّر حبي، لقد ركلت كل شيء عملته لك في وجهي.

لقد أجهضت طفلنا، وهذا أضرني بعمق. كل ما أردته أنت في الحياة هو حفلاتك ونساؤك ودوافع أنانيتك. وكل ما أردته أنا هو أنت، وسعادتي التي أخذتها بعيدًا عني. لقد أنفقت عليك مالي بسخاء، وكنت تلقيه بوجهي، كنتُ

أبكي بسببك، لا أجد عزائي في شيء من الدنيا لأحيا لأجله، أتمنى لو أحببتني مثلما أحببتك، حلمتُ بمستقبلنا، حلمتُ بنجاحنا، سوف أترك هذا المكان مع كل الأحلام المكسورة والوعود الفارغة. كل ما أريده الآن هو الذهاب إلى النوم وألا أستيقظ أبدًا مرة أخرى، أنا لا شيء، كان كل شيء يشعرني أنني بمفردي حتى في أثناء وجودك، جعلتني أشعر بالوحدة وأنني معرضة للخطر والخوف حتى منك".

من الواضح كمُّ العذاب النفسي الذي عانته هذه الفتاة وانتحرت على أساسه، لكني لم أنقل هذه الرسالة بطولها من أجل أن أؤكد مقولة "كل الرجال سيئون"، هذه مجرد حالة معينة تتشابه مع حالات أخرى، وهناك حالات أخرى يكون المؤذي فيها هي الفتاة، وإنما قصدت نقل الرسالة بطولها لأنقل للقارئ والقارئة الكريمين أن العلاقات الضارة قد تنتهي إلى هذ الكم من البؤس وتنتهي بالانتحار. وكم سمعنا عن شباب وفتيات انتحروا من أجل مثل هذه العلاقات المؤذية، كأن هذا السيناريو البغيض يتكرر دائمًا وأبدًا بشكل يكاد يدعو للملل.

ولا أدري لماذا يورط الإنسان نفسه في التعلق بمن يذيقها الويلات والخيبات، ما الجذاب في مشاعر الحيرة والارتباك والضياع والعذاب النفسي من أجل من لا يستحق؟ نعم هناك بعض العلاقات الجادة الطيبة الملتزمة إلى حد كبير بشريعة الله ثم يقدِّر الله للطرفين ألا يرتبطا رباطًا شرعيًّا، لعائق في الأهل أو في الماديات أو في غير ذلك، نعم يشعر الطرفان بالألم لكنهما في النهاية يستعوضان الله ويقرران الهجر حتى لا يصبح العذاب سرمديًّا، ويسلمان أمرهما لله، فهو سبحانه من بيده ملكوت السماوات والأرض، يدبر الأمر، وهو على كل شيء وكيل.

لكني أتعجب للغاية من هؤلاء الذي يقتربون ممن يبتعدون عنهم، ويتوددون لمن يعذبهم، ويتلهفون لمن يبغضهم، ثم هم يشتكون مما كسبت أيديهم، ويتمزقون من داخلهم جراء مشاعرهم، فيقررون الانتحار، أو الانعزال والانسحاب من أي نشاط في الحياة، ليدخلوا في دائرة لا تنتهي من الاكتئاب.

إن اللحظة التي يدرك فيها إنسان ما استحالة الوصل بينه وبين إنسان آخر فعليه فورًا أن يترك أحلامه وراء ظهره، مهما كان ذلك القرار صعبًا على مشاعره وقلبه، فالعاقل يلقي

مشاعره على جانبي الطريق ليفسح الطريق أمام عقله الذي سيعينه على تبديد الأوهام وإلغاء الأحلام التي يتخيلها المرء وهو مع حبيبه أو حبيبها.

فكلما استرسل المرء في خواطر الارتباط بمن لا نصيب له فيه، وظل يتعِب فكره فيمن لا يمكن عمليًّا الزواج به، زاد اضطرابه وكثرت هواجسه، وربما لاقى من الطرف الآخر الهجاء والجفاء وغلظة القول، فلا يزيد بؤسه إلا كمدًا ولا يزداد قلبه إلا ألمًا.

إن العلاقة بين جيا وسوراج لم تستمر سوى بضعة أشهر، فقد بدأت علاقتهما في سبتمبر 2020م وانتحرت جيا في يونيو 2013م، دخل سوراج في علاقة أخرى بعد وفاتها بأشهر، ونساها قبل حتى أن تموت، في حين أن جيا لم تجنِ من هذه العلاقة السامة التي أدخلت نفسها فيها سوى أن قتلت نفسها وخسرت دنياها وآخرتها.

ولعل رسالتها لا تتعلق بسوراج وحده، وإنما هي بمثابة رسالة لكل من يورط نفسه في علاقة مؤذية تهيمن عليها الأحلام والسراب: أن ابتعد عمن يؤذيك، وتحرر ممن يقهرك، وأعطِ فرصة لعقلك أن يحكِّم قرارات حياتك، فالمشاعر وحدها ستقودك للهلاك، كما أن العقلانية وحدها ستحرمك من تذوق الحياة.

خاتمة

(1)

هل يمكن لحلقات "المحقق كونان" أن تحفز على الانتحار؟

سؤال غريب أليس كذلك؟

تأمل معي الحادثة التالية، في إحدى حلقات كونان التي عُرضت بالجزائر في أبريل 2021م، صوَّرت الحلقة كيفية أن الإنسان الميت يمكنه أن يعود إلى الحياة، أغرى هذا الأمر العديد من الأطفال بطريقة أو بأخرى وقتلوا أنفسهم مقلدين للمسلسل الكارتوني، أحدهم شنق نفسه بحزام بدلة الكاراتيه، وآخر علق رقبته من جذع شجرة، كان إجمالي الضحايا 15 طفلًا، أكبرهم لا يتجاوز 14 عامًا.

وفي حادثة أخرى، عام 2014م، كتب الممثل الأمريكي المرموق روبين ويليامز رسالته الأخيرة إلى ابنته على وسائل التواصل الاجتماعي وقال لها "أحبك". ثم انتحر، المشكلة لم تكمن في انتحار ويليامز قدر ما كانت في انتحار الرجال من نفس الفئة العمرية في الولايات المتحدة، فقد سجلت هذه الفئة ارتفاعًا بنسبة 10 % في معدلات الانتحار في الأشهر التي أعقبت انتحار ويليامز، ثم نزل المستوى إلى ما كان عليه.

كيف نفهم هذه الحوادث؟ لنعد إلى عام 1774، حينما نُشرت رواية "آلام الشاب فيرتر" أول أعمال الأديب الألماني غوته. كانت على شكل مذكرات تحكي قصة الشاب "فيرتر" غير السعيد، العاطفي واليائس في حب شارلوت زوجة صديقه. وهي محاكاة لواقع الكاتب غوته الذي كان أسير حب شارلوت بوف، التي كانت حينها مخطوبة لصديقه. في هذا العمل، الذي يُمكن عده سيرة ذاتية للكاتب، يُطلق البطل النار على نفسه بعد حب مشؤوم. بعد فترة وجيزة من نشر الرواية، كان هناك العديد من التقارير التي رصدت أعدادًا من الشبان الذين يستخدمون الطريقة نفسها للانتحار، وقد أدَّى ذلك إلى حظر الكتاب في عدة أماكن.

ومن هنا جاء مصطلح "تأثير فيرتر"، المستخدم في الأدبيات الفنية لترميز حالات الانتحار المقلدة، لقد أطلق الباحثون مصطلح "تأثير فيرتر" على التناول الإعلامي لقضية الانتحار الذي يؤدي إلى تعزيز محاولات الانتحار عبر المحاكاة أو التقليد، في إشارة إلى أن الانتحار مثل العدوى، ينتشر بين الناس ويتسلل داخل العقول، ويسيطر على النفوس بشكل طاغٍ. هذا الأمر ينبهنا إلى خطورة تناول مسألة الانتحار بشيء من الاستخفاف أو بقدر من التهويل، فالتناول الخاطئ للسلوك الانتحاري سيفضي إلى احتمالية قضاء أحدهم على حياته، وواجبنا أن نمنع ذلك قدر وسعنا لا الاستهتار به أو تعظيمه أو تجميله.

(2)

وسؤال آخر: إذا كان البشر جميعًا يعانون في لحظات ما من حياتهم ألمًا نفسيًّا جرَّاء مرض معضل، أو علاقات رومانسية فاشلة، أو نبذ اجتماعي، فما الذي يدفع البعض إلى الانتحار دونًا عن البقية الأخرى؟ يقدِّم الأستاذ بقسم الدراسات العائلية راندولف ويجل الإجابة قائلًا إن العوامل التي تؤدي إلى الانتحار: «مركَّبة، ومتعدِّدة الأبعاد، وتراكمية في طبيعتها... وتتضمن أغلب حالات الانتحار اضطرابًا نفسيًّا مثل الاكتئاب الحاد، أو القلق، أو تعاطي المواد المخدِّرة، جنبًا إلى جنب مع اليأس الشديد الذي ينشأ كنتيجة لأحداث حياتية».

ولا تستقل هذه العوامل بمفردها في اتخاذ قرار الانتحار، كما يؤكد أستاذ علم النفس الأمريكي جون ريتشارد، إذ إنه لا الاضطراب النفسي ولا اليأس ولا ضغوط الحياة كلٌّ على حدة يؤدُّون إلى الانتحار بمفردهم، ولكن عندما تجتمع هذه العوامل في وقت واحد، ويكون الألم النفسي غير متحمَّل، فمن الممكن أن تظهر الأفكار الانتحارية، وتتحول هذه الأفكار

إلى سلوك فعلي عندما يتخطى الألم النفسي حاجز التحمل النفسي وقدرة المرء على التعامل مع الضغوط، لا سيما إذا لم يجد مساعدة ممن حوله، ولا متنفسًا صحيًّا لآلامه[1].

إن التفكير العلني في الانتحار ليس إعلانًا لجذب الاهتمام والتعاطف والفولورز (أو ينبغي ألا يكون كذلك) وإنما هو صرخة استغاثة ونداء لطلب المساعدة، فمن تكلم في مثل هذا الأمر بمثل هذا الوضوح فمن المؤكد أن الأفكار الانتحارية قد ساورته إلى حدٍّ أرهق ذهنه ولم يستطع محاربتها وحده، فحق لنا أن نعينه ونوفر له مساحة آمنة يبوح فيها عما بداخله.

أما من فكر مليًّا في الانتحار إلى درجة أنه بدأ في التخطيط له وتصور مشاهده ومحاولة الإقدام عليه بالفعل، فقد وصل إلى درجة خطيرة ينبغي معها إرشاده إلى المتخصصين النفسيين فورًا دون أدنى تأخير.

---

(1) Jon Richard, "Suicide Risk Assessment and Risk 3. Reduction: Tactics for the Trenches," paper presented at the Rocky Mountain Regional Disaster Mental Health Institute, (Laramie, WY: 2003, May).

(3)

هذا دورنا -مختصرًا- تجاه من تساوره أفكار انتحارية، لكن كيف نقي أنفسنا من الوصول لهذه المرحلة ابتداءً؟

إنني أزعم أن كل قارئ وقارئة للكتاب سيشتبك مع شخصية بعينها في الكتاب، فغالبنا سيجد قدرًا من المعاناة متشابهًا مع صاحب تجربة معينة مثله، فما الذي يمكن أن نستفيد به من التجارب التي عرضناها من الكتاب؟!

لقد رأينا إن الأسباب التي تؤدي إلى الانتحار متعددة، منها فقدان القدرة على التحكم في الحياة الشخصية، وعدم الأمان الاقتصادي، والفشل في التكيف مع المجتمع، وفقدان الأمل، والشعور بالعبء على الناس، والإحساس بالعجز والخواء، وعدم الشعور بأهمية الوجود، وغير ذلك.

ولاحظنا كيف أن غياب المعنى عن الحياة هو أحد أهم مسببات الانتحار، فغياب المعنى سيؤدي إلى فشل التكيف مع الضغوط، فالمشقات والاضطرابات التي لم يكن هناك مبرر

لتحملها، فإن الإنسان سيشعر باليأس واللا جدوى ومن ثم ربما يحاول الانتحار.

وقد أوردنا في جل تجاربنا -أو كلها- أن الدين لم يكن حاضرًا قط في تجارب المنتحرين، فالمعاناة متحملة إذا كان الدين يلعب دورًا مهمًّا في حفظ النفوس واستقرار الحالات النفسية للناس. وفقًا لأستاذة علم النفس بجامعة جنيف أولفاماندهوج، فإن الدين «يؤثر في سلوكيات ومعتقدات الناس وخبراتهم مع الآلام والأمراض، بالإضافة إلى أنه يعطي للناس المعنى والقدرة على التعامل مع المشكلات النفسية». وتشير أولفا إلى أهمية عد الدين في العملية العلاجية لذوي الأفكار الانتحارية قائلة: «في الحالات التي تقدم على الانتحار، ينبغي للدين أن يكون جزءًا من العلاج، لأن الدين يتناول مسائل أخلاقية ورؤى لما بعد الموت، كما أنه يوفر للإنسان المعنى والأمل والغاية في الحياة، في مقابل الشعور بالفراغ والضياع وفقدان المعنى الذي يعانيه أغلب المقدمين على الانتحار».

يؤكد عالم الاجتماع المرموق الفرنسي إميل دوركايم هذا الدور المهم للدين في توفير المعنى والغاية والقدرة على تحمُّل

الآلام والمصاعب، ويتحدث -على سبيل المثال- عن سبب ندرة حالات الانتحار في المجتمعات الإسلامية قديمًا قائلًا بأن: «الإنسان في التصوُّر الإسلامي كما يقول نبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يموت إلا بإرادة الله، وطبقًا للكتاب [الأجَل] الذي يُحدد نهايته، ويقول: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [الواقعة: 60]، والواقع أنه ما من شيء أشد تعارضًا مع الروح العامة للحضارة المحمدية من الانتحار». ثمَّ يشرح دوركايم سبب هذا التعارض قائلًا: «لأن الفضيلة التي تسمو على جميع الفضائل الأخرى [في التصوُّر الإسلامي] هي الخضوع المطلق للإرادة الإلهية، والاستسلام الطيِّع الذي يجعل الإنسان يصبر على كل ما أصابه. وهكذا فإن الانتحار بوصفه عصيانًا وتمردًا، لم يكن من الممكن إلا أن يكون إخلالًا فادحًا بالواجب الأساسي للإنسان في الحياة»[1].

إن المنتحر ينتهك أقدس ما خلق الله، وهي النفس البشرية، وقد أنذر الله من يقتل النفس بغير حق بوعيد شديد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 93].

(1) إميل دوركايم، الانتحار، (دمشق: الهيئة العامة للكتاب، 2011م)، ص/ 423.

إن الصبر على البلاء أحد أهم مركزيات الدين الإسلامي، ومن فقِهَ أن الحياة كلها ابتلاء وعوَّد نفسه على الصبر والتصبر والجلد فإن الله يوفقه للصبر بالفعل، ولذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيرًا لِي، وَتَوفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

وقد أخبرنا القرآن بأن الحياة ابتلاء، وأن المؤمنين يتعرضون لنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ويبتلون بالخوف والجوع، هكذا هي الدنيا، وإلا فما الفرق بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة؟

(4)

كما لاحظنا في التجارب التي ذكرناها أن ثمة غيابًا في حالات كثيرة للحياة الأسرية والدفء العائلي المطلوب للسواء النفسي، فأحد أهم مقومات الصحة النفسية هو صلاح حال الأسرة والتماسك الأسري يحيا فيه الإنسان في إطار من الود والتفاهم والعلاقات المتزنة، ولذلك فإن بعض الدراسات تشير إلى أن الأسرة هي الرافد الأول للصحة النفسية لدى المضطربين نفسيًّا.

وكذلك فإن أحد أهم سبل الوقاية من شبح الانتحار هو الصحبة الصالحة التي توفر ملاذًا طيبًا ومساحة آمنة للفرد يبوح فيها عما بداخله ويشارك غيره همومه ويستعين بإخوانه على معاناته، وقد بلغت أهمية التصبر بالصحبة إلى حد أن الله -عز وجل- أمر نبيه بالتصبر بأصحابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

وكما رأينا في بعض التجارب فإن الحياة العاطفية المفككة ستزيد من معاناتنا في هذا العالم، وحريٌّ بالإنسان أن ينأى بنفسه عن مواطن الشبهة، وألا يسلك طرقًا ملتوية في الوصال بمن يحب، فالعلاقات العاطفية ما لم تُبنَ على إطار شرعي محدد وضوابط شرعية سليمة فإن العلاقة ربما تتفكك تمامًا ليعاني كل طرف منها ويلات وخيبات بسبب التعلق والذكريات والأسرار وغير ذلك مما كان ينبغي أن يوضع في إطاره الشرعي المضبوط.

وفي المقابل فإن الممارسات الخاطئة ستؤدي إلى زيادة البؤس لا نقصانه، فاللجوء إلى المخدرات من أجل الحصول على جرعة مزاجية لن يعفي المرء من معاناة الواقع، والهروب إلى العلاقات المحرمة والجنس سيورط المرء في مشكلات أكثر مما هو متورط منها، والهروب إلى الكحول سيدمر خلايا دماغ الإنسان، والانعزال التام عن الناس سيمكّن الوحدة من نفسيتك وذهنك، أما خداع النفس ورسم صورة وهمية على السوشيال ميديا فلن يسمن ولن يغني من جوع.

إن كل هذه العوامل لا تشكل حلولًا، وإنما هروبًا مؤقتًا من الألم ما يلبث أن يعود مرة أخرى. والفقيه من واجه الحياة كما هي، مستعينًا بالمنهاج القرآني، ثم بعائلته إذا سنحت الفرصة، وبإخوانه ممن حوله، وأخيرًا بتعلم كيفية مواجهة المشكلات وإدارة المشاعر وفهم طبيعة الدنيا والحياة، ثم مقاومة الألم والصبر على البلاء ودفع الباطل قدر وسعه، حتى يلقى الله وهو عنه راضٍ.

فمن استعان بالله وتوكل على الله أعانه الله ووفقه إلى الخير، ومن جماليات التراث الإسلامي هي تلك اللحظات التي عانى فيها السلف الصالح قبيل موتهم عند لحظات الاحتضار، ومن ذلك ما يروى عن المسور بن مخرمة -رضي الله عنه- قال: «دخلت على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهو مطعون فقلت: كيف ترونه؟ قالوا: كما ترى»، وكان عمر في حالة إغماء من شدة النزيف ولم يستطيعوا إفاقته.

قال المسور: «أيقظوه بالصلاة، فإنكم لن توقظوه بشيء أفزع له من الصلاة، فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين! فأفاق عمر، وقال: ها الله إذًا.. لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة.

قال المسور: «فصلى عمر، وإن جرحه ليثعب دمًا رضي الله تعالى عنه» يعني: يتفجر منه الدم ويسيل في أثناء صلاته.

هذه الرواية البسيطة تبين لنا عظمة جيل الصحابة، إذ كان أمر الصلاة عندهم كفيلًا بإفاقتهم من الإغماء لشدة تعظيم الصحابة لأمر الصلاة، لقد نسي عمر معاناته وترك آلامه جانبًا أمام وقت الصلاة، حتى إنه صلى وجرحه تسيل منه الدماء!

والحمد لله رب العالمين.

رسائل ما قبل الانتحار

"إلى أمي، وأخواتي، ورفاقي، هذه ليست طريقة جيدة، ولا أرشحها لأي إنسان، ولكن ليس هناك طريق آخر".

بهذه الكلمات، سطر الشاعر الروسي فلاديمير مايكوفيسكي آخر كلماته إلى هذا العالم، ولعلها من أصدق الرسائل التي كتبها إنسان على وجه الأرض، فالمنتحر يعلم أن هذه الطريقة لن تحل مشكلاته، ولكنه رغم ذلك كله دفع نفسه إليها وألقى بنفسه في غياهب الانتحار.

لعل أحد عوامل "جاذبية" رسائل المنتحرين هو أننا نجد أنفسنا في لحظة ما نتشارك نفس المشاعر مع المنتحرين، ويتجلى ذلك عندما نقرأ رسائلهم، فمن ذا الذي ينكر فينا أن رسالة فان جوخ الأخيرة: "الحزن سيدوم للأبد" قد لمسته من داخله كلما قرأها؟ ومن منا كلما قرأ رسالة داليدا: "سامحوني. الحياة لم تعد تحتمل" ساورته خاطرة مشحونة بالألم دفعته لترديد نفس الجملة "فعلاً الحياة لم تعد تحتمل".

هذا الكتاب نقرأ فيه معًا ثماني رسائل انتحارية، نجول فيها بين حياة الأشخاص ورسائلهم، لا للاستكشاف الأدبي فحسب، وإنما للتعلم من الأخطاء، والاتعاظ من تجاربهم، والاستفادة من الرسائل التي سطرها الراحلون قبيل قرارهم المؤسف بمغادرة الحياة.

تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com

9 789776 902183

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb